نورالدين حنيف أبوشامة

ورطةُ الجِهاتِ النّائِمَة

إضمامةٌ قصصية

أبوشامة نورالدين حنيف

ورطةُ الجِهاتِ النّائمة

إضمامة قصصية

- أبوشامة نورالدين حنيف
- من مدينة الدارالبيضاء بالمغرب
- شاعر و زجال و ناقد و فنان تشكيلي
- لوحة الغلاف من إنجازي (حبر جاف أزرق على ورق A4)
- Abouchama24hanif@gmail.com

إهداء:

إلى روحِ زهرة غازي

أمّي الّتي كانت...

و تكون...

و ستكون...

...

العتبة:

يحـــدثُ أن يحــكيَ الحــاكي حكايتــه المنســوخةَ في قلبـهِ القـديم و لا يسـتمع إليهـا القـارئ و لا يقرؤهـا السـامع. و يحــدث أن ينســخها مــن جديــد في قلبــه الجديــد فتتحــول الحكايــة إلى شريــط مــن الغضــب يــزجّ بــالحكي خــارج هــذه الـــذات الملعونـــة في تشـــظي الحكمـــة الشخصـــية الـــتي لا تســمن المــتلقي و لا تُغنيــه إلا لمامــاً، حــين يُصــادِفُ نفســه فارغـاً في محطّـة قطـار يتـأخر عـن موعـده. يتوجّـه المـتلقي إلى أقــرب كشْــكٍ يــروّج للشــكولاته أكــثر مــن ترْويجــه للــورق ، فيبتــاع منــه الكتــابَ، لا لعمــاره الفكــري و لكــن لبريــق لوحتــه الفنيــة المُغَلِّفَــة لمتاهــات المجهــول. يتأبّطــه و يتصــفّحه ثــمّ يقــرّر أن يــزدرده في لجّــاتِ الانتظــار. و يحــدثُ أن يســتكمل هــذا القــارئ العــابر مســاحات القصــة كلهــا، لا إعجابــاً أو انبهـارا، و إنمـا سـهوا بمـا في يديـه مـن تخطـيطِ الهـذيان، نسيَـ أن يُلــقيَ بــه في دوائــر النســيان، لأن المقطــورة لــم تُــتح لــه محــاورة مــن المحــاورات اللذيــذة الــتي عــادةً مــا يجــود بهــا سياقُ السّفر و زمان الرحلة.

هكــــذا نقــــرأ الكتـــاب الموســـوم هنـــا بـــالحكي الحنــيفيّ، و الــذي يظــن صــاحبه أن مــا بــين دفّتيــهِ قمــينٌ بالمتابعـة. فيمـا هـو سـيلٌ مـن التـدبيج الشخصي- الغـارف مـن رؤيـــة ضـــيقة و قـــاصرة للمـــاحول في تغوّلـــه عـــلى ممكـــنِ الـذوات. و أتسـاءلُ هنـا أيضـاً، أنـا القـارئ المسـكين: مـا ذنـبي أن أتـــابع هـــذيان هـــؤلاء الكتَبَـــة الـــذين ينبتـــون في الســـاحة الثقافيـة مثـل الفطـر في غابـة غـير اسـتوائية؟ و مـا قـولكم في حتميـة القـراءة لنـدعم المشرـوع الثقـافي البيضـاوي و المغـربي و العـربي و لِـمَ لا: الكـوني؟ هـا أنـا أسـيرُ الآن حثيثـاً إلى ذروةِ المنـتهى حـين أشـتغل عـلى هـذه الأنـا الضـاغطة و المتواريـة خلــف حُجــب الوصــول. أســيرُ و أنــا واثــقٌ أن القــارئ الآن يســخر مــن هــذا الوبــاء الســديم الموســوم بالقصّــة. أنــا الآنَ أكتــبُ القصّـــة، أو تكتبُـــني القصّـــة، لســـنا نـــدري معـــاً مـــنِ الفاعـل و مـن المنفعـل... دعنـا مـن هـذا و ذاك، و ألْـقِ بنـا في تخـــوم هـــذا المحـــكي علّنـــا نصـــطاد بعـــض الغـــيم في أزمنـــة المحل و القحط.

الورطة الأولى

اعتقال

قبل الحدث:

كــان مفــرداً في تعــدّد، و متعــدّداً في مفــرد. اســمٌ بــين أســماء توحّــدتْ في الخــروج و تشــعّبتْ في الــنزوح. و كــانَ المكــانُ بيتــاً نكِــرة بأســماء مُعرّفَــة. دأبَ ربّهــا، كمــا دأبَــتْ رَبّتُهــا عــلى العمــل المكــدود حــتى تبْلــغَ الْأســماءُ مآرِبَهــا. و لــم يكُــنِ الزّمــان إلا ليلــة، وشــمتْ في داخلــه أخاديــد موشــومة، تجــاوز وشــمها ذاكرتــه إلى شــحذ بعــض تاريخــه. لــم يــدّعِ أنهــا ذاكــرة أســقَمتْ روحــه، و لا أنهــا ألهمــتْ إنســانيته. فكــل هــذا كــان وارداً بقــوّة. لكــنّ كــل مــا يــذكره بإلحــاحٍ أنهــا ذاكــرة مــرّتْ مــن هنــا. فــوق هــذا الجســد و تحــت هــذه الــروح. و أخــذت مــا أخــذت و تركــت مــا تركــت، لكنهــا غــذّتْ بعــض الجــوع في هــذا التاريــخ.

داخل الحدث:

كانــتْ تضــاريسُ الجســد تعــومُ في البــدْء، تمرينــاً عــلى الاســتواء في لجــج الصــالاتِ الصــفراءِ النازِحــة مــن الشرــق الآســيوي. و كـــانَ صـــاحِبُنا يمضـــغ الزمـــانَ في تربيـــب القصــورالبدني تربيبــاً يعقِــلُ الحركــة في رياضــة الجيــدو. و مــن

عمـق هـذه الصـالات يخـرج العـرقُ إلى مدينـة الربـاط حيـث يطلـب النشْـفَ داخـل المـدرجات العبقـة بصـنوف المعرفـة. و بـين هــذا و ذاك، دأب هــذا الجســد عــلى معانقــة روحــه داخــل مســاجد المــدينتيْن، يطلــب فيهمــا راحتــه و يســوّي توازنــه كي يتلقفــه الشــارع بكــل تناقضــاته و هــو في كامــل اســتعداده لمواجهــة المفارقــات و مقارعتهــا بمــا أوتيَ مــن أدوات. تؤنسـه في ذلـك جماعـةٌ مـن الشـباب، بـاعوا ذواتهـم لله و احتسـبوا أعمـارهم لخدمـة القضـية الربانيـة مرشوشـين بمـاء الوعـد الإلـهي، بجنّـة عرضـها السـماوات و الأرض، فيهـا مـا لا عـينٌ رأت و لا أذنٌ سـمعت و لا خطـر عـلى قلـب بشر. و فيهــا الحبيــب المجتــبى يمــدّ كفّــه المباركــة، كي تبــارك نزوحهم إلى هناك...

الحدث:

و ذاتَ فجـرٍ صـعد الظـلامُ إلى غرفتـه الخاصّـة، بعــد أن طــرق بوابــة الــدار برعونــة لا توصــف. كـان الظـلام يـتقمّص ألبسـةً سـوداء و زرقـاء قاتمـة. طوّقـوا جسـده الرخـو بأسـئلة سريعـة و مُدينـة، ثـم حملـوه عـلى أجنحـة الخطـف و ألقـوا بـه داخـل سـيّارة. كـان معصـوب العينـيْنِ يحـسّ بـدبيب

العجـلات تمســح الإســفلت في تــؤدة مقيتــة، يبحــث فيهــا الظـلامُ عـن دورٍ أخـرى وغُـرفٍ أخـرى أشـبهُ بـاللُّقَطِ النـادرة، فيمـا الموصـوف بـالخطفِ يحفـظ الأصـوات خـارج السـيارة لضـبط وجهتهـا. و لكنـه لـم يكـن مخلصـا لقـرار التعصـيب ، لهـذا كـان بـين الفينـة و الأخـرى ينظـر خلسـةً إلى مـا يجـري. و يـرى السـيارة تـدلف مـن الأحيـاء الشـعبية في دوران صـوري قصـــد التمويـــه. أدرك صـــاحبنا أنـــهُ في اتجـــاه المعتقـــل الاحتيـاطي الكـائن في الـدرك السـفلي مـن المقاطعـة 13. و هـو درك مخصـص لمعـتقلي الـرأي كيفمـا تعـددت مشـاربهم العقدية و الإيديولجية.

التحقيق:

أنزلـوه معصـوب العينـين مصـفّد اليـدين إلى مكـان صـامت أشـبه بمقـبرة و لـو لـم يـرَ منهـا إلّا بلاطهـا بحكـم طأطـأة الـرأس و نفسـه أشـبه بفـؤاد أمّ مـوسى و أفـرغ. أدخلـوه إلى ممـرّ فـارغ أو كـاد. تركـوه هنـاك دون إشـارة أو امـارة أو حـتى عبـارة. أجلسـوه عـلى دكّـة خشـبية بـاردة مثـل احتقـار. ثـم غادروا...

أدرك بحدسه القويّ أنهم إليه أقرب، يراقبون ردود فعله كي يبنوا عليها تحقيقاتهم و مضانّ شكوكهم في أمره حتى يكتمل لاحقاً تقريرُهم عنه بدقّة متناهية. أدرك أيضا أنهم يمارسون هذا الترك و ذاك الإهمال الممنهج لأنهم يعلمون بحكم خبراتهم الواسعة أن أي معتقل في بداية اعتقاله يُصاب بخوف غريزي يرتفع معه منسوب المتانة إلى حد الانفجار، فيكون همّ المضنون واحدا لا غير، و هو الرغبة العارمة في الإفراغ. و هي فرصة للمحققين كي يجنوا من هذا الوضع المأزوم ما لذّ لهم من الاعترافات.

جرّوه و هم يسبّون ثوابته و والديه بأبشع السباب إلى مكتب التحقيق، معصوب العيون دائما و مصفّد اليدين. أجلسوه على كرسيّ أبشع من بلاطٍ بارد في منطقة سيبيريّة. أعادوا حلقات السبّ و الشتم لدينه و لدنياه، في خطّةٍ ساذجةٍ لإرباكه و حصد ما شاؤوا من اعترافاته. سألوه عن انتمائه السياسي و عن حركته السرية و عن أسماء أشخاص... و بين السؤال و الآخر كان يتلقى ضربة سوط من جلد رقيق و حاد و مؤلم. و تصاحبُ الجَلدةَ سبّةٌ مُهينة و مشينة. ثم استغرق تحقيقهم

لصاحبنا في الشاذة و الفاذة أكثر من ساعتين، يكررون فيها نفس الأسئلة و نفس المشهد، و صاحبنا ثابت على ردوده لا يتناقض أبدا. و لمّا يئسوا منه ألقوا به في زنزانة تأسنُ داخل جدرها الرطبةِ أربعةُ كائنات مغضوب عليها... و هو كان خامسهم، في شبه كهفٍ بغير كلبٍ و لا وصيد.

امتداد:

تركوه دهراً من الزمن أو بعض الدّهر في زنزانةٍ ضيقة مع أربعةٍ ممن رسى عليهم قرار التعصيب و الزيارة الفجرية المباغتة، و الحبس الاحتياطي إلى حينٍ غير مسمّى. كل معتقل له حق في لحافيْنِ رماديين واحد فراش و ثانٍ غطاءٌ لا يقيانِ من برد أو قرّ. أعفتْ إدارة المعتقل المعتقلين من الأصفاد فيما أبقت على التعصيب لغاية في نفسها. لم يلتزم المعتقلون بوضع العصابة على العين إلا في حضور الحرس و المراقبين، و ما تبقى من عمر اليوم فيكون وضع العصابة أسفل الذقن كأنه القلادةُ من قماش أو كأنه ربطة عنق فارس من نجوم الويسترن... في هذه لفترة الطويلة لم تسمح الإدارة للمعتقلين إلا باستحمامٍ واحد يتيم. كان ماءً ساخناً و قطعة من صابون تتملص من

قبضــة اليــد و تنزلــق بعيــدا عــن المســتحِم. وقــد حــدث لصــاحبنا أن انزلقــت منــه قطعــة الصــابون فاستشــاط الحـارس غضـبا لمـا أطـل عـلى المسـتحِم مـن فتْحـةٍ علمـتنِ البابِ ضـيّقَةٍ، و لـم يجـده في إطـار زاويـة نظـره ظنّـاً أنـه فـرّ مـن الحمـام أو مـا شـابه ... كـادت روحـه أن تزهـق منـه لـولا أن اكتشـف حقيقـة الوضـع بسرـعة. فقـدّر الحـدث في غضـب و سبٍّ و شتم.

و حــدث أن نــوديَ بعــد ذلــك بإســبوع عــلى صــاحبنا كي يســتحمّ للمــرة الثانيــة. رجــع إلى الزنزانــة بوجــه مشرق تدور فيه دماءُ الحياة. قال لإخوته في السجن:

ســيُفرجُ عــليّ بعــد حــين قصــير. قــال أحــدهم: لا تحلــم ... قــال ثــانيهم: و مــا دليلــك؟... قــال: أنتظــرتُ أن يُنـادى علـيكم للاسـتحمام، و لمّـا لـم تفعـل الإدارة و حظيـتُ وحـدي بهـذا الشرـف المـائي فأنـا أكيـد محظـوظ بـالإفراج. قـال ثالثهم: طوبى لك و العاقبة لنا.

في الغــد، و بعــد العصرــ، نــودي عــلى صــاحبنا، أدخلـوه مكتبـا ضـيقا عنـد بوابـة الخـروج مـن بطـن معتقـل

درب مـولاي الشريف، أرغمـوه عـلى توقيـع وثيقـة دون أن يقرأهـا... تلكـأ في التوقيـع حـتى قـرأ بعضـها. لـم يكـن معـتقلاً سياسـياً في كنّاشـاتهم، كـان صـبيّاً فوضـوياً شـارك في الشـغب الريـاضي. أعـادوا إليـه ملابسـه، ارتـداها بسرعة أسـطورية ثـم غـرق في شـمس الله يمتصـه الشـارع في هرولـة خرافيـة إلى بيتهم الذي يحتضن تاريخا جديدا...

الورطة الثانية

زنبقةُ سوداء

قَــال الشّــيخُ الْمُــدثَّرُ في بُــرْدةٍ ســوداءَ، بعــدَ أن رمَى في فنْجانِ بُنِّهِ قطعةَ سكّرٍ واحدَة:

كُــلُّ الْمَسَــاكِينِ فِي هَــذا الْبَلَــدِ الْمُبَــارَكِ يُعَشِّــشُ فِي عُيُــونِهمْ طَــائِرٌ، تَشْــتَهِيهِ الْكَمَــائِنُ وَ الْمَــدَافِنُ، وَ لَا تَشِــتَهِيهِ تَقَاسِيمُ الْحَلْوَى الشَّقْرَاء.

قَــال أيضــاً بعْــدَ أنِ ارْتشَــفَ مــرارَةَ الوصْــفِ الأوّل: فِي عَــيْنِ بَدَوِيّــةِ الْجَبَــلِ يَسْــكُنُ طِفْــلانِ، وَاحِــدٌ تَعْجِنُــهُ تُرابــاً، يَثْقُــبُ الْأَرْضَ الْبِدَائِيّــةَ فِي عُنْفُــوَانِ الشَّــبَق. وَ ثَــانٍ تَبْرِيــهِ قَلَمــاً يَحْفَــظُ فِي صَــدْرِهِ الْعَــارِي مَــا نَسِــيَهُ الــتُّرَاب. وَ فِي الْمَسَــاءِ، يُنْجِــبُ الِابْــنُ أَبَــاهُ فِي فَرْحَــةِ كَــأسِ شَــايٍ وَ كِسْرَــةِ خُــبْزٍ دَهَنَتْهَــا الْبَدَوِيّةُ بِسَمْنِ كَفَّيْنِ قُدَّتا مِنْ جَلَدٍ وَ حَنِين.

قالَ ثمّ سكَت:

الْعَــرَقُ فِي الْأَيَــادِي الْمَشْــقُوقَةِ أَشْــجَارٌ يَابِسَــةٌ، كَانَــتْ تُغَــنِّي فِي أَرْدِيّــةِ اللَّيْــلِ ثِمَارَهَــا الْمَسْرُــوقَة، وَ فِي النَّهَــارِ صَــلَبُوا قَامَاتِهَــا الْفَارِهَــةِ عَــلى مَقَاصِــلِ الْوَجَــع الصَّــامِت فِي

طَـــلَاءِ الْجِـــدَارَاتِ الْمَنْسِــيّة... الْأَسْــمَاءُ عَــلى الْمَحَجَّــاتِ وَ الزُّقَاقَاتِ عَلَامَاتُ ذَاكِرَةٍ اقْتَلَعُوهَا مِنْ مُتُونِ الْعَرَقِ.

ســادَ الْمكــانَ صــمْتٌ مَهِيــبٌ ألْجَــم المُتحلّقِــين حــولَ مِقصلةِ الحشْـوِ الأسـود المعـترفِ بعضُـه بثقافـة السـكَّر و الرافضِ بعضُه لها . خرجَ عنْ سُكوتِهِ ليسْتدرِك:

آهْ... كــدْتُ أنْسىــ: عَــينُ الْفَــلّاحِ شُــعاعٌ وَ مَطَــر، قَامَتُــهُ قَــوْسٌ مَشْــدُودٌ إِلَى حَجَــر. اِمْرَأَتُــهُ أنهــارٌ مُفْعَمــةٌ بِالنَّشِـيد. نَسْـلُهُ مَنَـاقِيرُ، مَنَعُوهَـا أَنْ تَبْلُـغَ سِـنَّ الْقَضِـمِ، أَفْتَـوا فِي رَوْعِهَا أنْ حَرَامٌ هِيَ فَرْحَةُ الْعِيد...

قــالَ مُحدّثُــهُ و هــو في الآنِ ذاتِــهِ مُرِيــدُه، متكوِّمــاً في بذلـةِ عصرِيـةٍ زرقـاءَ أفصَـحتْ شـديداً عــن كتلتـهِ اللحمِيـة الموغِلَـة في السّـمنة، بعـدَ أنْ طـوَى جرِيـدة اليـومِ الثّـامِنِ بـيْن يديْه:

كــم يكفِيــنِي مــن الوقْــتِ لأصــعدَ قمّــة الكــلامِ فــيكم؟ و أنــا أرغَــبُ في القــولِ فتحــاصِرُني حِكْمَــةُ المســاكِين. أَرَاضِــينَا لَا تُنْجِــبُ سِــوى نَبْتــاتِ الْمَــوت، وســوى صَــهِيلٍ، لا

يَنْمُـو فِيـهِ إِلَّا جُمُـوحُ الْحُفَـر. كـذا صـاغَتْ حِكْمَـةُ السّـنابِل رأيَهـا في المشْـكِلَة وَ هِيَ تُعَـرِّجُ فِي أَشْـواقِ جَـلالِ الْغَـيْمِ ... كُلّمـا دَاخَـتْ عَـنِ الـتُّرْبِ شَـقائِقُ النُّعْمـانِ، وَ أوْراقُ النّعْنـاع، كُلَّمـا رَكَضَـتِ الْمَنـازِلُ ضِـدّ رَغْبَـةِ الـرّيح فِي حَصـائِدِ الْأشْـلاء ... وَحْـدَهُ وَشْـمُ الْماءِ يُـدْرِكُ مَوْتَها بِغَـيْرِ بَـراهِين، وَ بِغَـيْرِ فَضِـيحَةٍ لِأَناشِيدِ الرَّحِمِ الْمَوْجُوعِ فِي مَديحِ السَّراب.

قـالَ عاشِـقٌ يلمّـهُ الجمـعُ معهُمـا و عيْنُـهُ عـلى اليـومِ الثّـامِن، تسـكُنُه رغْبَـةٌ قدِيمـةٌ في مداعَبَـةِ جنـاحِ الكلماتِ المُتقاطِعة:

هَـذِهِ الـرِّيحُ الْغَرِيبَـةُ، تَنْجُـرُ رِيـشَ الْحَمامَـة، كَيْ لَا تُحَلِّـقَ فِي انْتِشَـاءِ الْغَـيْمِ، يَراعـاً يَلْـبَسُ الضَّـوْءَ، وَ يَمْشِي عَـلى صَـفِيحِ النَّهْـر... وَلَمّـا خَطَفَـتِ الْحَمامَـةُ رَبِيعَهـا السّـادِسَ بَعْـدَ الْعَقْـدِ الْعَـاشِرِ مِـنْ أَزْمِنَـةِ الْخَـوْفِ، دَثَّرُوهـا بِـوَرَقٍ ذَابِـلٍ ثُـمَّ فَتَحُوا أَمامَها بابَ التَّكاثُر .

أمّـا أنـا، و لـمْ أكـنْ بعيـداً عـن أصـداءِ الحلقَـة، فقـد صـدّعَني هـؤلاء المُنْتشُـونَ في أرائِـكِ الوصـفِ، يشخّصُـونَ و يصِـفون. و يكـادُ الْكـلامُ مـنهمُ أنْ يسـخطَ عـلى الْكـلام. كانـتْ

عقِـيراتُهم مُرْتفِعـة، و كـأنّني بهـم يَرومُـونَ تسْـمِيع الحُضـورِ شـجْبَهمُ الحرِيـريّ... أصـخْتُ السّـمع تأهّبـاً لمغـادَرةِ الْمقْـهى إذا مـا شـطّ هـؤلاءِ في مسلْسَـل رسْـم لوحـاتِ الكآبَـة بمجـازاتٍ باذِخَةٍ في التّجرِيد.

سـمع الشـيخُ عبـارَتِي الأخـيرَة، مـع العلْـمِ أنـني همسـتُ بهـا لنفْسِيـ، و لـولا أنّـني عـلى يقـينٍ شـديد بـأنني الوحيـد الـذي سـمع مقـالتي لقلـتُ إن في الأمـرِ سِرّاً . و قـد قلـتُ إنّ في الأمـر سرّا... فهـا شـكّي يتبخّـرُ عنـدما ابتسـم لي هـذا الشـيخ في مكـرٍ مُعلِّـم. و أدركـتُ بعـد حـين قصـيرة أنّـهُ لـم يسْتسِـغْ رفْضِيـ الواصِـف لحضُـورِهم. بـاغَتَنِي و أنـا اللّامُنـتمي لجلْســتِهِم بدعوتِــهِ الهادِئــة كيْ ألْتحــقَ بمائِــدتهِم الدّسِــمة بالمعْرِفَة و الكلام.

اســتَجبْتُ خشــيَةَ أن يشْــمَلَنِي الشّــيخُ بلمــزِه و غمْـزه. و أصـبحتُ في لمـحِ البصرِـ رابعَهُـم. و قـد رحّبُـوا بي بابتِسامات اختَزَنتْ أكثرَ من مَكْر.

كــانَ المكــانُ عبــارَة عــنْ فضــاءٍ واسِــعٍ في حيٍّ شـعبِيّ، يتّسـعُ لكـلّ الـراغِبينَ في الفتْـكِ بجسَـدِ الْوقـتِ حـينَ

الوقْــتُ يُصــبحُ أرْخــص مــادّة و أوفَرَهــا و أوجَــدها في ســوقِ المُمتلَكات. و قـد وسـمَ صـاحِبُ الْمقْـهى مقْهـاهُ باسـمٍ عجَـمِيّ لا يتنــاغَمُ و المحِــيطَ الاجتمــاعيّ الــذي يحــيطُ بها.الزنبقــة الســوداء (la tulipe noire) ولعــلّ صــاحِبَها عــاشَ مُغْترِبــاً بعــضَ أزْمِنَتِــه بــالْبِلاد المنْخفِضــة، أو لعلّــه حــظِيَ بــبعضِ النّصـيبِ مـن ثقافـةِ الرّوايـةِ الغربيـة، أو لعـلّ الأمـر لا يعْـدو أن يكـونَ محـضَ صُـدفَة. فمـا أكـثرَ الصّـدف الّـتي تحـوّل المجْـرى عــن طريقِــه الطّبــيعي، إلى مجــارٍ أخــرى، و مــا أكثَرَهــا و هيَ تصـنعُ تمثّلاتِنـا المغْلوطـة خـارجَ نيّـاتِ المـاء في قـراره الأول بالانسياب...

قــالَ الشّــيخُ مُرطِّبــاً أجــواءَ المجلِــس بعــدما اكتشـفَ تـوتّرِي الزائِـد عـن المظنـون: مرحبـاً بـكَ في هـذيانِنا الّذي نرجوه يكتملُ بحضورِك المُضِيف و المُثْرِي.

ركّــز الحــاضرون نظــراتِهم عــلى شخصِيــ المُقحَــم في تنــاغُمهم. و كــأنّني بــابٌ يُخلِّصُــهُم مــن التّشــابُهِ و الشّــبَه الّـذي طـال محـاوراتهم. قـالوا جميعـاً و بصـوتٍ واحـدٍ و بنـبرَة هيَ أقْــربُ إلى العتــابِ منهــا إلى السّــؤال و المســاءلة: لقــدْ سـمعْنا وصـفكَ إيّانـا بالتّجرِيـد، فهـل توضّـحُ لنـا أيـنَ و مـتى و

كيـف جرّدْنـا و لـمْ نُشَـيّئْ؟ و كيـفَ شـطَحْنا في سـماء الْخيـال و لم نُنِخْ أرضاً و أديما؟

هنـا و بالـذّاتِ سُـقِط في يـدي، و ارتفَـع منسـوبُ عجـبِي و اسـتغْرابِي مـن حـالِهم. فكيـف أستسـيغُ سـماعَهم مقـالتِي و أنـا الّـذي حـدّثتْني سرّاً دون أن أحـرك شـفتيّ. كيـفَ أفهـمُ تـوغّلهم في خاصّـتِي؟ كيـف أسـتوعِبُ علمَهُـم بنِيّـتي؟ لـم أشـأ أن يُدْرِكوا حيرتِي، فقلتُ مرْتبِكاً أشدّ الارتباك:

الأمـر في حقيقَتِـهِ... قـاطَعَني الشّـيخُ ذكـاءً منـهُ و تقـديراً لحـال التـوتّر الـذي أنـا فيـه... قـال: أطلُـبْ مشروبكَ أولاً مـن النّـادل قبـل الحـديث و المحـاورة. قلـتُ: قـدْ اسـتهْلكتُ قهـوَتي تـوّاً و أشـكركم. قـال: قهـوةٌ عـنْ قهـوةٍ تختلِـف، و المـرءُ لا يعـومُ في الـبنّ مـرّتين. لاحظـتُ إصرارَ نظرتِـه الحـادّة، فطلبـتُ أخـرى، ثـمّ كانـتْ بـين يـديّ... قـال ثـالثُهمْ: هـاتِ مـا عِنـدك. و قـد كانـتْ هـذه الـ(هات) أشـدّ مضـاءً مـن خنجـر، إذ تسـتبطِنُ تحـدّياً ملحوظـاً لِـذي لمـحٍ و رؤيا. استجمعتُ قوايَ الوجدانية و قلتُ :

وصــفتُم العــالمَ القــرويّ، ســواءٌ مــا تعلّــق بنســائه أو رجالــهِ أو أبنائــهِ أو بناتــهِ في تلويحــاتٍ مأســاويةٍ موغِلــة في الوصــفِ المُــنزاحِ و التشــخيصِ الــبلاغِي و الشّــاعِرِية البعيــدة و الدلالــة الغامِضــة... و نحــنُ لســنا في حاجــةٍ لهــذا التحْلِيــقِ النّــاعِمِ و الْحرِيــريّ بالقضــايا الشــائكة و الّــتي تمــسّ المجتمــع في صــميمِ وجــوده و مســتقْبَلِه، بقــدرِ مــا نحــنُ في حاجــةٍ إلى البــدائل الْمُمكِنــة و الْقرِيبــة مــن تخــومِ الأجــرأة و التّفعيــل. همُّنــا قــد تجــاوزَ البكاءَ إلى التّغيير، و قــد حــانَ وقــتُ اســتبدالِ لغةَ الهروبِ و النكوصية بِلغةِ الانخِراط و المواجَهَة...

ســادَ صــمتٌ غريــبٌ خــيّمَ عــلى فضــاء الزنبقــة الســوداء، فيمــا تحَوّلــت كــل الوجــوهِ إلى مجلِســنا ترشُــقُه بوابِــلٍ مــن النظــرِ والانتظــار، و تترقّــبُ ردّاتِ فعــل الشــيخِ و مُرِيديــهِ، و تنتظِــرُ بشــغفٍ عــارِمٍ تفضَــحُهُ نظــراتُهُم العاشــقة لمعرِفــةِ النّهايــة، و كــأنّهمُ أعضــاءُ فرِيــقٍ لِكــرة القــدمِ يســتعْجلونَ ضرْبَــةَ جــزاءٍ حاســمَة تفصــل فــريقَهم عــن الفــوزِ بالكــأس أو إهــدارِهِ قــابَ قوســيْنِ أو أدنى... و حــتّى النــادل تجمّــدَ في موْقِفِــه حبّــاً في اجتِنــاءِ عســلِ هــذه اللحظــة. ثــمّ تحــوّل الفضــاءُ في ســمتْهِ و صــمتِه و خشــوعِهِ إلى أجــواءِ مناظرةٍ يقْتلِعُها الوصفُ من أزْمِنَةٍ غابِرةٍ في تراثٍ عريق.

لـم يحتكـرِ الشـيخُ شرفَ الـردّ بقـدر مـا تـركَ الحبْـلَ عـلى غـاربِ مريديـه، فـانبرى العاشـق لهمـا إلى القـول: هـذا حـديثُ السـيّاسيّ الحـالِم. و قـال المريـدُ السّـمين: هـذا حـديث الثـورِي المكتئِـب في لبـوسِ الحـركيّ. قـال الشـيخُ: هذا حديثُ من لا حَديثَ له...

أدركـتُ حجـمَ الورْطـةِ الّـتي وضـعتُ ذاتِي في شـباكِها، خاصّـةً و أنّ الحـاضرين ارْتطَـم تـوقّعُهم بجـدارٍ أصـمّ و قـد كـانوا ينتظـرونَ مـنّي الغلبَـةَ بحكـمِ تجـانسِ طـرْحِي مـع انتِظـاراتهم، و بحكـمِ بسـاطَةِ عـرْضِي الـذي لـم يشـطّ في التحليـق و التجْنـيح البلاغيـيْن. كنـتُ قرِيبـاً مـن وجـدانِهم و ربّمـا كنـتُ الشّـارحَ الأفضـلَ لانتظـاراتهم. فيمـا الشـيخُ و مرِيـدوه سـكنوا في قلعـةٍ عاجيـةٍ بعيـدة... قـرّرتُ بعـد ذلـك مضـاعفَة الهجـوم، فلـيس لـديّ مـا أخسـره مقارَنـةً بهيبـةِ الشـيخِ الّـذي ورّط ذاتَـه في جـدل المقارنَـة و المُفاضـلَة مـع كـائنٍ مغمـورٍ و عـابرٍ و نكـرة مـثلِي أنـا. قلـتُ في يقـينِ المحـاورِ المالِكِ لشرْطِ اليقِين:

لسـتُ سياسـياً كمـا وصـفتم، و لسـتُ ثوريـاً كمـا شخّصـتم، و لسـت سـديماً أحفـرُ في ضـبابِ الكلامِ. أنـا مجـرّدُ

مُكْتـوٍ بشـــررِ التهميشِ الـذي يطالُ الباديـةَ و الْحـاضِرةَ معـاً. و اكْتِـوائِي لـم يُلْـقِ بِي في أتـونِ المسـافة العاجيـة، و لـم يحـوّلْنِي إلى يــائسٍ يطــرقُ أبــوابَ الأحــلام في ســذاجةِ الراغِــبِ في التغـيير و هـو مسـتلْقٍ عـلى أريكـةٍ مخمليـة. أنـا و بكـلّ بسـاطةٍ مواطِنٌ لا أعيشُ خارِجَ المشهد.

أحسســتُ أن فضــاءَ المقــهى صــفّقَ كـاملاً بـأكفّ صـامتة لعــرضِي الثّاقِــب و هــشّ لهجــومي المــوزون و العــابِرِ لوجـدانِ الحضـور بـلا اسـتثْناء. فيمـا النّـادلُ يبـينُ عـنْ فـمٍ افـترّ مسـروراً حـتّى بـدتْ نواجـده... اسـتوى الشـيخُ في جلسـتِه و كأنّــه يُــزيحُ عــن جســدِهِ ثقْــلاً زائـداً لا مســوِّغَ لترْكِـهِ يقــضّ راحتــه. قــال في حكمــةٍ و ســمتٍ مشــهُوديْنِ لمثلِــه في مقــامٍ عـالٍ و وقـور: أنـت يـا ولـدي تـذكّرُني بشَـبابِي حيثُ كان شِـبابِي أشــدّ اشْــتِعالاً و أُوارا. و لســتُ ألومُــك عــلى هــذا أو أعاتِــب، بقـدرِ مـا أريـدُ أن أوجّهـكَ إلى بـابٍ لا تلتفِتـونَ إليـه أنـتم معشرَ المثقّفـين، ألا و هـو بـابُ الرّضـا بالقـدر. فـدعِ المقـادير تجـرِي بمـا شـاءَتْ و نـمْ عـلى جنـبِ الرّاحـةِ. فالّـذي خلـق القريـةَ لا ينسَى القريـة و أهلَهـا. رُفِعـتِ الجلسَـةُ يـا ولـدي بعـدما طوِيـتِ الصّحفُ و جفّتِ الْأقْلام.

كانَ الشيخُ يتكلّمُ من زاويةِ اليقينِ. فيما مريدوه فضّلوا الصمتَ الملغومَ بألف رغبةٍ في الهجوم. و ربّما كانتِ الإشارةُ من شيخهِم أن ينْهُوا المحفلَ قبلَ أن يستفْحِل. و قد كانَ هذا السياقُ السّانِحُ فرصةً لي كيْ أكمِلَ أطروحَتي و أنا أعلمُ أن أحدهم لن يجرؤَ على مقاطعَتي حفاظاً على سمتِهم و وقارِهم. قلت في تعقّل واضح: سيدي و أسيادي، و أنتم العارِفون و العارف لا يُعرّف... إن المسألة لا تعدو أن تكون تارِيخاً يتكرّر، سواءٌ في مسارِ حضارتنا العربية و الإسلامية، أو في مسارِ حضارة الآخر. الأمر موكولٌ لفكرةِ التّدافُعِ لا لفكرةِ التسْلِيم. و التّدافعُ هنا فرضُ عين لا فرض كفاية. و الكلّ، و أقصدُ أطياف المجتمع الفاعلة و غير الفاعلة مطالَبَةٌ بالفعل و الانخراط و التأثير. و أداء الواجب هنا واجبٌ، سواءٌ تعلّق الأمر بالفرد أم بالجماعة، و سواءٌ ارتبط البديل بالأحزاب أم بالجمعيات و الهيئات المدنية أم بالمؤسسات المالكة للقدرة على صناعة القرار...

قامَ الشيخُ في هدوءِ الريحِ الهادئة و الحاملة لمشروع العصف الشّديد، ثم قام معه مرِيدوهُ في انسجام كاملٍ يشي بالسّمتِ المضغوطِ عليه. استأذنوا ثمّ غادروا

المقـهى تتقـدّمهم بـردةٌ سـوداءُ سـقطتْ منْهـا قبـل الـدلَفِ إلى الخـارِج زنبَقَـةٌ أشـدّ سـوادا. سـارعتُ إلى التِقاطهـا، ثـمّ دسستُها في ذاكرتي.

التَفـتُّ إلى الحـاضِرِين فـإذا أعيـنُهم الـتي كانـت تخترِقُني لـم تعـد تفعـل. كل مـا أذكـرهُ مـن هـذا الحـادِث أن كلّ مجلـسٍ في فضـاء المقـهى عـاد إلى شـأنِهِ الخـاص و بـدا كـأن شـيئاً لـم يحـدث. و عـوضَ البخـورِ المعبـوقِ الّـذي كان يخـيّمُ عـلى المكـانِ، خـيّمَ دخـانٌ آخـرُ تنفثـه سـجائرُ المـدخّنين في خليطٍ غريبٍ من أنفاسٍ غريبة.

***

الورطة الثالثة

رصاصٌ و سكّر

الفصل الأخير:

من أين يأتيك هذا الضوء ؟

وأنا أبحث عن إمكانية للإجابة عن هذا السؤال المخنّث، توّجتُ رأسي بأكاليل من فراغ، كل فراغ وردة، وكلّ وردة على رأسها شوكٌ بارد مثل مسمار. لم يتقبّل صديقي الواضح هذه الفلسفة الغابرة في أزمنة الكلام. لأنه وبكل بساطة تربّى على عشق الضوء

نعم ... وهذا جميل. فكلانا يسأل عن الضوء. ففيم الغرابة والسؤال إذا كانا ماسخينِ لجلال الجلسة؟

كان صديقي مفعما بالبساطة حتى النخاع، ولم تكن تغويه النهارات المختلفة ولا الليالي الغامضة. كان أبسط من حتى في مواقع النحويين العرب. كان لا يمتلك من الدنيا إلا الغاية، وكان في ذاته غاية. ولقد سقط ذات زمن في روعه أن الغاية التي لا تأتي من صلب النار لا تستحق التسمية.

عــاود الســؤالَ، لكــن في حــيرة جديــدة، لا مــن صــمتي وعــزوفي ولكــن مــن رنــين الســؤال في جوفــه. كــان السـؤال فعـلا شـكلاً جمـيلا مـن المناسـبة لسـد الفـراغ القـائم جـبلاً بيـني وبيـني. أمـا صـديقي فقـد نفيتُـه مؤقتـاً في جـلال الصمت والتفكير النقي في ماضيه الغابر.

فكــرتُ في الإجابــة، فمنعــني مــن ذلــك الضــوء نفســه. ذلــك أن الضــوء مــادة. قــال صــاحبي: الضــوء لــيس مــادة، لأنــه غــير قابــل للقــبض. و اختلفنــا، واســتمر الخــلاف دهـرا حـتى تـمّ القـبض عـلى بعـض الضـوء في صـباحات مـاكرة تواطــأت مــع الصــمت الملغــوم بشــتى المباغتــات. منهــا مباغتة الضوء.

وليلــة القــبض عــلى الضــوء كــان صــاحبي مهتمــا بارتكـاب الهـذيان، جريـرةَ عشـق يختزلهـا لصـباح آتٍ وقريـب. ســاعتها كــان يرتّــق سروالــه الأزرق الــذي خــدش في أســفله مســمارٌ لعــين في زحــامٍ ألعــن. كــان يحــب ذلــك السرــوال. وإمكانيــة تغيــيره بــآخر كانــت فكــرة تــراوده ويطردهــا، حبّــا في ذاك اللــون. وقبــل أن يجرّبــه أمــام المــرآة، كــواهُ كيّــاً دقيقــاً وكأنــه كــان عــلى موعــد عســليّ. خلــع سرواله الأزرق، مــدّده

على السرير الفارغ، ثمّ تمدد هو على سرير نومه في انتظار الضوء.

أما أنا، فقد كنتُ أتابع من هنا، لحظة انقشاع أول شعاع على هذا الساذج النائم صحبة سرواله الأزرق، لأرى كم هو عابث هذا الصباح غير المكتمل بورد الفرحة. كنت أنا هنا، من هنا، أتابع، ذاك الزمن الغابر. كنت أتابع رحلة الليل المتوجة بالصراخ يهرب إلى داخل الورد، ويتمدد فيه نسغا غريب السريان. وكنتُ أطمع في انسياب النهر ماء وطميا وحجرا وغثاء... كنت أطمع في الجريان دون توقف حتى يُسمى النهر نهرا، دون عقابيل ودون تعثر. كنتُ أجد في الحكي بواسطة السؤال متعة، لكنها كانت متعة غير مكتملة لأن الإجابات كانت متمردة.

قد تقولُ، وأنت صاحبي الساكن في الرواق المجاور لروحي الدخانية، ربّ نهر لا ينساب . قلتُ نعم، فقط إذا كان الانسياب مشروطا بالصمت. لم أفهم كلامه، ولم أفهم كلامي. فكلانا كان نهرا، لكنه لا ينساب.

قــال ثالثنــا، وهــو يمتلــك عينــا مهرولــة في اتجــاه المعــنى : كــم سفســطة تريحــون عــلى كــفّ النهــار والليــل ؟ قــال صــاحبي الكلاســيكي: وهــل نحــن متعــددون ؟ قلــتُ وأنــا الواحــد في العــدد، وأنــا العــدد في الواحــد: إنهــا تجليــاتٌ و كــفى. قال ثالثنا: ولقد زدْتَها غموضا. ثم سكت.

لا يعيبنــا ونحــن نحــاور الصــمت التــاريخي الفاتــك إلا شيء واحــد، هــو النكــوص المجــاني عــن الكتابــة. نعــم. الكتابــة، وهي التــاريخ المؤجــل دائمــا لحاجــة في نفسيــ ونفســك ونفســه الثالثــة والرابعــة والأخــيرة. لــم أكُ راغبــا في الكتابة لأنها كمائن.

قـــال صـــاحبي وقـــد زاغ صـــبره عـــن جـــادة الصــواب... دعونــا مــن هــذا الآن. وقــولا لي، أيــن نحــنُ؟ حــذار أن تجيبــاني بــالغموض النــوعي الفاتــك بالنهــار. أريــد إجابــة فقــط ... إجابــة واحــدة، ومكانيــة. قلــتُ: نحــن في المقــهى. أحسســت بصــاحبي قــد ارتــاح وكأنــه أزاح عــن كاهلــه صــخرة قادمــة مــن كتــاب فلســفي. ولأول مــرّة رأيتُــهُ يرتشــف فنجــان قهوتــه وهــو مغمــض العينــين يســتدرج لــذّتها الهاربــة مــن شــفتيه قبــل اليــوم. قــال لي بعــدها بيــومين أو أكــثر : كنــت

أحتسي- فنـاجيني في عنـاوين العـادة. قلـت ومـا الفـرق الآن؟ قـال: الفـرق بـين الحسْـوتين هـو الفـرق بـين قـراءة خـبر عـادي في جريــدة قديمــة، وقــراءة قصــيدة ضــوئية. قلنــا: الله الله عـلى لسـانك المشـبّه، إنـك تـذكّرنا ببلاغـة الجمـال وجمـال البلاغـة. قـال: دعونـا مـن تشـبيهاتكم وشـبهاتكم. لنصـف الآن شكلنا الآبق من قبضة المعنى.

قلتُ : أنا خمسينيّ أطل على عتبات الشباب

قال صاحبي : أنا عشريني أحمل فوق رأسي خبزا

قـال ثالثنـا: أنـا لا أقـبض عـلى شـكل الـزمن لأن الـزمن منفلـت، ودوري هنــا لا يقــف عنــد حــدود الوصــف. أنــا عميــق فــوق الوصــف وفــوق الحــكي وفــوق التحديــد. وقــد أوصــاني بعــض العــاملين عــلى حمايــة الضــوء أن أقــف محايــدا... والتصريــح بالسن موقف يخرج صاحبه من الحياد .

قلــتُ: إذن لا تــدع لنــا كلامــاً خــارج الانهمــار، ومــا تــبقّى مــن حيــاد الكــلام فلــك أنــت وحــدك. فهــم قصــدي واســتوعبه جليـل الاسـتيعاب، ثـم فكّـر وقـدّر ثـمّ لـم يـدبر، بـل قـرّر ... أمـا

صـاحبي فـلاذ بصـمته الموجـع، لأنـه سـيكون هـوَ مـادة الحكي.

لنبدأ الآن ...

من يتكلمْ ؟

أنَا.

بل أنا.

لا ... بل أنا.

يـاهْ!كم أنـتم سـاذجون. وتنسـون بسرـعة الضـوء أدواركـم . لسـنا سـاذجين، ولكننـا عـامرون حـتى الثمالـة ونحب أن نبدأ. ولقد بدأنا فجر القبض على " عامر "

ومن يكون هذا الـ " عامر " ؟ ...

كـان " عـامر " رقمـاً في سلسـلة مـن شـعاعات الضـوء، معجبـاً بمـا فيـه كسـائر المعجبـين بالانتقـال. وكـان

الإعجـاب سـمة فاعلـة في تحولاتـه الماضـية، والباحثـة عـن شـكل لأصـابعه العاشـقة للفـوضى. وأول الفـوضى كـان قلـم رصـاصٍ مزهـوّاً بعذريّـة القـراطيس. وللقـراطيس شـكل العـوالم المغريـة بالـدخول لبنـاء أبجـديات حيـاة لا تقـبض عليهـا الأيـدي المشـقوقة الآتيـة مـن معامـل السـكّر. وكـان السـكر حلـوا في شـفاه الـزمن ولـم يـك في شـفاهنا أحـلى. كـانَ عرقـا لرجـل مثـل خـيزران يتـدثّر دائمـا في اللـون الأزرق، ويمضي في جسـد الأيـام كمـا تمضي الأيـام في جسـده، تقضـم منه كي تطعمنا نحن في أعشاش القطن اللطيف.

قـال الخمسـيني: ومـا العلاقـة بـين قلـم الرصـاص والسكر ؟

لـم يـكُ سـؤالاً خاويـا، لأن الولـد العشريني فقـه أشـد الفقـه لـون الحـكي ولـون المعانـاة ولـون الصراخ. وقبـل أن يرتشـف الرشـفة الأولى مـن فنجـان قهوتـه المـرّة اللذيـذة، أحـس بـالمقهي تتفـرج كلّهـا في صـورة الرصـاص والسـكر، لهـذا خفض الحكي من صوته وهو يبتسم في مكر جميل .

احْـكِ أنـت هـذه المـرة، فمجـرد التفكـير في تـلاوة الـزمن يشـعرني بالرغبـة في الغثيـان. احـكِ ولا تلتفـتْ. احـك وأنــت في المقــهى تمــدّ رجــلاً خــارج المائــدة المســتديرة كي تــنفّس عــن تشــنّج العضــلات القابعــة في ســاقين ممتلئتــين بــالركض. لــم أكــن أركــض، وكنــتُ أتــابع ركــض أبي الأزرق. قلــمي الرصــاص كــان يــركض معــه، يــوازي نشــاطه العــائم في ظلّـين، ظـل المحطّـة الملعونـة وهي تعلـن عـن قـدوم الحافلـة الزرقــاء، و ظــلّ الســكّر الــذاهب الــذائب قوالــب فاتكــة بــين العين والعين .

أذكـــر كـــم مـــرّة جلـــب لي أبي بعـــض الأوراق الخارجيـة الزرقـاء والباطنيـة البيضـاء الـتي كـان عمـال الشركة الكبـيرة يلفـون فيهـا قوالـب السـكر. كنـت أحـتفظ بالبيضـاء فقــط، أحولهــا إلى صــفائح مرســمية تــفي بالحاجــة كي أخــطّ عــلى بكاراتهــا عنفــوان الفــتى العشريني. أبــدع عــلى صــفيحها لوحــات كثــيرة بــالأبيض والأســود فقــط، حيــث قلــم الرصــاص يخــتزل كــل الألــوان في واحــد. لعلهــا الحاجــة تحــوّل الكــائن إلى ممكنــات وتحيــل الأســود إلى شــبكة مــن الألــوان الكامنــة. والــركض كــان عنــوان هــذه اللوحــات الصــبيانية الباحثــة عــن ظــل لهــا في عــالم الفــن المفتــوح فقــط عــلى مســابقات يتيمــة

تحركها بـرامج غامضـة تبثّهـا الإذاعـة الوطنيـة. وكـم بعـث الفـتى في عقـده الثـاني مـن لوحـات عـبر البريـد إلى " دار الـبريهي " الـتي كانـت في تمثلاتـه البريئـة داراً عـامرة بالنجاحـات فقـط. وفي سـذاجة عفويـة كـان يصـدق، كـان يصدق حـتى ولـو لـم تـرد عليـه الـدار ولـو بجـواب واحـد يتـيم. وكانـت لوحاتـه تمـوت في هـذه الـدار لأنـه لـم يكـن يملـك منهـا إلا تلكـم الأصـول الوحيـدة . ومـع ذلـك كـبرت في وجدانـه صـورة الفـتي وهـو يلـج مدرسـة الفنـون الجميلـة بـرأس مرفوعـة بعـد الحصـول عـلى شـهادة البكالوريـا. ولمـا حصـل عـلى الشـهادة كـان الـذي كـان وتبخـرت الـدار والمدرسـة معـاً في وعي جديـد عنوانـه الوحيـد هـو التّيـه والأسـئلة الكبـيرة والأكبر من رأسه الصغير.

لِمَ قطعتَ حبل الحكي وقد أخذ منّا كل المآخذ ؟

أظـن هـذه الجلسـة في هـذه المقـهى النائيـة مثـار حـديث ذي شـجون. والشـجن طويـل الحبـال لهـذا أريـد أن أسـتريح فقـط لآخذ نفساً واحدا من سيجارة مفترضة .

وهل تشرب السجائر؟ لم يكُ في علمي إلا العكس.

أنـــا أشرب الســـجائر بطـــريقتي الخاصـــة، أفترضـــها دخانـــا ســـديميا يســـافر فـــوق وجـــهي فيتشـــكل أجســـادا في الفضـــاء القريب من وجهي أرى فيه صورا لماضٍ ولّى .

ألا ترى فيه صور المستقبل ؟

لـــن أنجـــرف لـــك في هـــذيانك الـــذكي الجـــاذب لخيـوط الحـديث إلى عـوالم أخـرى أشـد التـذاذا وأشـد إيلامـا. دعـني أقـول لـك إن مسـوّغ الـدخان هنـا تمـاهٍ عـابر في وجـدان الفـتى اليـافع والسـاكت في هـذا المقـام تحديـدا. هـل تعـرف سرّ ســكوته ؟ هـــذا الـــدخان المســـافر في المقـــهى يحـــوّل الـــذاكرة إلى صـــورة ذاك الأب الشـــارب أصـــابعه المتكـــررة في علـــبٍ تـــتراوح بـــين لـــونين لا أدري لـــم اختارهمـــا تحديـــداً، ولا أدرى حـتّى ، هـل اللونـان همـا مـن اختـارا شـاربهما؟ لـم أفهـم . انتظـر لحظـة، مالـك تسـتعجل ؟ كـان الأب يشـرب سـجائر شــعبية مــن النــوع الــرخيص همــا " أولمبيــك الحمــراء " أو " أولمبيــك الزرقــاء " ... آه ... هــذا الأزرق اللعــين الــذي يشــبه القــدر ... لا تســب القــدر ... لــم ألعــن القــدر ولعنــت اللــون فقط...

انــبرى الفــتى المتوثّــب مثــل مــدرّس يمتلــك الجـواب حـين عجـز التلاميـذ عـن فـك شـفرة اللحظـة. الشيء الجميـل في هـذه الصـورة أننـا لا نـذكر ولـو لمـرة واحـدة سـافر فيهـا الـدخان داخـل خياشـيمنا ونحـن نمـوت في النـوم، ولـو مـرة واحـدة ضـبطنا فيهـا ونحـن المشـاغبون المَكّـرة في حالـةِ تلـبّس الخـيزران بالـدخان. كنّـا نعلـم أن الـدخان جـزء مـن البيـت لكنـه كـان يتـوارى دائمـا عـن أنظارنـا وكأنـه ربيـب مرفوض.

لماذا تركزون على موضوعة الدخان ؟

قـال الفـتى، وهـو يـدرأ عـن نفسـه عـذابات الحـكي البـارد: في مسـتقبلِ الأيـام خرجـتُ و أبي إلى مطـار محمـد الخـامس بمدينـة الدارالبيضـاء، كي أودّعـهُ و أمي الـراحلين إلى الـديار المقدسـة. جـذبني الـدخان مـن يـدي برفـق وأبعـدني عـن الألـق. قـال لي: سـأعود ان شـاء الله مـن زيـارة مقـام النـبي وكلّي أمـل في أن تجلـب لي هديـة وسـآتيك في مقابلهـا بهديـة. قلـتُ مطلبـك أمـر يـا أبي. قـال : اجلـب لي لوحـة خشـب صـقيلة وجيـدة كي أعـود إلى حفـظ كتـاب الله. وكـان لـه ذلـك. أمـا هـديتي أنـا فلـم أسـأل عنهـا بعـد رجوعـه مـن المشرق.

عرفتُ الهدية من سحنة وجهه الصبوح. لقد انقطع عن شرب الدخان. وكانت رغبتي قديمة جدّا أن ينقطع عن شرب الدخان. أرأيتم كيف يمكن للدخان أن يكون بيت قصيد ؟

قال ... هذا ليس بؤرة حكي حتى ولو كان الفعل نبيلا يرجع المرء في خلاله من حالة العدم إلى حالة الضوء. الدخان الجليل هو الدخان الذي لا نستطيع القبض على تلاوينه. نفث بؤرة جديدة من نَفَسِهِ المفترض، ووضع رجلاً على أخرى ثمّ سوّى جلسته كأنه يتأهب للنوم .

أنت كسول.

نعم ... وأعتز بذلك

كلنا ذلكم الكسول. خاصة في الصباحات الكسولة التي لا تريد أن تنتهي من تثاؤبها اللذيذ

الصباحات أيضا تشرب الدخان.

موضــةٌ أم ابــتلاء ؟ ســأل الرجــل الخمســيني مجالســيه بمكــر وهــو يبتســم في خــيلاء العــارف. ثــمّ أردف قــائلا: المســألة الآن لا تتعلــق بقيمــة الموضــوع بقــدر مــا تتعلــق بوظيفتــه في نســغ هــذا اللقــاء. و أكــثر مــن ذلــك، في نســغ هــذا الوجــود الممتــد فينــا نحــن الثلاثــة. قــال الــذي لــه علــم بالكتــاب خــارج الفلسفة : أنا غير معنِيّ بهذا الوجود، أنسيتم أنني محايد .

الحيــاد أســطورة. قالهــا الفــتى العشريــني في صــمت جليــل مثــل عارف صوفي يمتهن لأول مرّة حكمة العبور.

الورطة الرابعة

كمِ السّاعَةْ ؟

كـمِ السـاعة ؟ سـؤالٌ يتكـرّرُ باسـتمرارٍ عبـثيٍّ لا مقصـودٍ في أزمنـةِ الهـدْرِ لمـادّة الـزّمن. و قـد يكـون السـؤالُ بماهيـةٍ حقيقيـة إن صـدرَ مـن كـائنٍ مُفعـمٍ بالأنشِـطةِ و الأعمـالِ حـتّى درجـةٍ لا يجـد فيهـا وقتـاً كي يفـرك أم رأسـه، كمـا تقـول المسـكوكةُ اللّهجيـةُ المغربيـة الماتحـةُ صِـدْقَها مـن الوجـدان الشـعبي. و قـد يكـونُ السـؤالُ بـلا ماهيـة إذا صـدر مـن مُسْـترْخٍ عـلى أرائـكِ الانتظـارِ للّـذي يـأتي و لا يـأتي، و هـو يمـارسُ رياضَـة الخـواء عـلى طـاولاتِ الـنردِ و الـورق أو مـا شـابه، أو يمـارس فتنـةَ الفـراغِ في مقـاهٍ أفـرغَ مـن فضـائياتٍ تبيـعُ الـوهمَ و التّفاهـةَ و الرخاصـة لجمهـورٍ يسـوِّرُ معصَـمَهُ بـأنواعِ السـاعات الثمينـة، فيمـا الـرخيصُ عنـده هـو الوقـتُ الّذي لا ذنبَ له و هو المسؤول عنه باستمرار.

قالَهـا صـاحِبي و هـو ينغـز دابّتـهُ يحثّهـا عـلى المسـير، ظنّـاً منـه أن الوقـت قـد تـأخر عنـه ليقضِيَـ مآربَـه هنـاكَ حيـث يسـير. سـألتُهُ عـن سـببٍ واحـدٍ جعلـهُ يُقْحِمـني في مقالتِـه الخارجـة مـن فلسـفة الـزمن. و أنـا لـمْ أكُ أنغـز دابّـتِي لأنـني مـن الفئـةِ المسـترخية الّـتي تـؤمن إيمانـاً صـلْباً بشـعار قـديم يتجـدد فينـا مثـل نسـغِ الشـجر. قـالَ: و مـا شـعارُكَ أيهـا المتحـذلق؟ قلـتُ في يقـينِ المنتصرـين: شـعاري لخّصـتْهُ

العـــرب المســـتعربةُ و العارِبــةُ و المُعرَبَــةُ و المُعْرِبَــةُ في عبــارة فاتكة هي (كمْ حاجة قضيناها بترْكِها).

أحسســتُ بحنــقِ دابّتِــهِ عليــه و هــو يكــرر فعــل النغــز عــلى كتفهــا الأيمــن بعــدما أدمى صـاحبي الكتــف الأيسرــ الّــذي انتهــتْ صـلاحيةُ نغــزِهِ في انتظــارِ تجــدّده بعــد دهــرٍ آتٍ لا مفــر... نظــرتْ إليّ بغلتُــهُ بحنُــوٍّ نــادرٍ يختــزنُ إحساســيْن: واحــد فيــه شــكرٌ لي لتضــامني اللامشرــوط، و ثــانٍ فيــه تشَــفٍّ قريــبٌ مــن حالــةِ الانتقــام مــن فاعــلِ النغْــز. قالــتْ لي في صــبْرٍ يتــاخِمُ لحظــةَ الفرقعــة و الانفجــار: ألــيس لصــاحبكَ قــدرة عــلى التفــاوض أو التواصــل حــتى نصــل إلى حــلٍّ آخــرَ غــير النغز؟

لــم أصــدّق ســمعي، و ظنَنْتُــنِي مُصــاباً بضربــةِ شــمسٍ خاصــةَ و نحــن نســير في عــزّ الظهــيرة إلى السّــوقِ البلــديّ البعيــد مــن دوارِنــا بعشرــةِ أميــال. لــم أكــنْ أهلــوس أو أحلــم في يقظــة، أو أتصــور اســتيهاماتٍ سرياليــةً نازحــةً مــن عبــث (الميتــامورفوز)، كــل مــا في الأمــر أنــني ســمعتُ البغلــة تــتكلّمُ مــعي، و زادَ مــن يقيــني أن بغــلي الّــذي يُقلّــني عــلى متْنِــه هشّ لها برأسهِ مزكيّاً أطروحَتَها...

قلـتُ لصـاحِبي في منطِـقِ الوقـتِ و الأزمنـة: كـم تـبقّى لنـا مـن المسـير؟ قـال: أوَ أنـتَ غريـبٌ عـن الـدارِ و الـدوارِ و السـوقِ البلـديّ حـتّى تستقصِيَ عـن هـذا الأمـر؟ علمـتُ بعـد ذلـك أنـه صَـدِئُ البديهـةِ و غـيرُ مسـتوعبٍ لسـياق اللحظـة. فأنـا لـم أكـن أرتـجي جوابـاً بقـدر مـا كنـتُ أُلمِّـحُ إلى ضرورةِ الرّفـقِ بدابّتِـهِ الّـتي لا يـني عـن نغزِهـا بـين الفينـةِ و الأخـرى. و أظـنّ صـاحبي لـم يتمـدرسْ في بيئـةِ البلاغـةِ الّـتي تلْـقِي بـالمفردة و تقصـدُ غـير معناهـا. ثـمّ سـألتُهُ عـن ماهيـةِ الإيحـاء. قـال بغضـب: لـم أعـد أفهمـكَ يـا صـاحِبِي... عندئـذٍ صـمّمتُ قـراري أن أنسـلخَ مـن عبـاءتي المثقّفـة حـتى لا يُصِـيبَني مكـرُ الأعصاب.

رميـــتُ بصرِـــي شزراً إلى البغلـــةِ و البغـــل، فلاحظـتُ ضـحكتهما السـاخرة مـن مشـهدنا في لمـزٍ يُنْصِـفُني و يـدينُ صـاحِبي. فاطمـأن بـالي. لا لتشـفٍّ منـه و لكـنْ لاعتبـارٍ آخـر جعلـني أسـتغربُ مـن مقالتِـهِ الـتي صـدّرَ بهـا رحلَتنـا و الـتي لـم يتجـانس معهـا في أسـئلته البعيـدة عـن سرعـة البداهة.

ساد بيننا صمتٌ ماكرٌ من جهتِنا نحن الأربعة. فهمتُ صمتي و صمت الدّابتيْنِ، و لكنني لم أفهم صمتَ صاحِبي. فبادرتُ إلى إخراجهِ من سلطانهِ المبهم، و قلت: هل يكفينا نصف يومٍ لقضاء مآرِبنا في السوق؟ ردّ: بل هي ساعة نتبضّعُ فيها ما يلزمُ من خصاصٍ في مواد الغذاء، ثم نعود القهقرى ... قلتُ: و هل تقصد بالساعةِ الزمنَ في تحقيبهِ الدقيق المحدود بحدود التقطيع المعروف، أم تقصد الساعةَ الوجْدانيةَ الّتي قد تقصر إلى ربع الساعة و التي قد تطول إلى غضون اليوم؟... لم يأْبَه بطرحِي، و مضى ينغز و ينغز و ينغز و كأنّه ينتقم من مكري على كتف بغلته. لم أشأْ أن أُكهْرِبَ مناخَنا و نحن أصدقاء العمر. فلطّفتُ الجوّ بمكر آخر لم يُدركْ وخزه. أطلقتُ العنانَ لصوتي و غنّيتُ مرتحلاً من غيوانية الصينية إلى رومانسية أهواك و اتمنّى لو أنساك إلى حكاية عايْشة في ثنايا فن الرّاي. قال باستغراب: ما هذا الخليط؟ قلتُ: هو زمن الرحلة يفرضُ برنامجه... ضحك صادقاً و غنّى معي، و لم يدركْ أنه أيضاً ارتحل هنا و هناك بل زاد الطينَ بللاً عندما ركز على الحصباوي و العلوة في تقليد ماسخ تمنيتُ معه لو سكت.

شـكرتْني بغلتـه لأنـه انشـغل بالغنـاء عـن نغزهـا لمـدّة هي أشـبه بالهدنـة. قالـت لي: (اللهـم العمـشُ و لا العـمى). في تقليـبٍ لمسـكوكةٍ دارِجـةٍ مغربيـةٍ نعرفهـا منـذ نعومة مفرداتِنا.

أمّـا بغـلي فسـمعتُهُ يدنـدن أغنيـة "عايْشـة". أدركتُ أنهُ يحبّ...

كـمِ السـاعةْ ؟ ... هـو السـؤال المكـرورُ الّـذي لا يتغـير مهمـا انسـلخ الكائن اليـوم عـن معـادن معصـمه. و هـو السـؤال رغـم اسـتبدال الزينـة بالمسـتطيل الـذكي الّـذي حـل محـل السـوارِ. و الـذي جعـل العـين مدركـةً للتوقيـت في عبـثٍ لا يوظّـف الاطّـلاعَ عـلى التوقيـت، إن هي إلا العـادةُ تزيـدُ في اسـترخاء السـائل و المسـؤول و السـؤال، و السـاعة اليدويـة و الإلكترونيـة و سـاعة الحـائط و سـاعة المحطـات و سـاعة البيـغ بـن و... فيمـا السـاعةُ قادمـةٌ لا محالـة، و قـد أشرقـت أو أبرقتْ أو أزفتْ علاماتُها. فطوبى لمن أعدّ العدّة لها.

قلــتُ هــذا الكــلام، فــازورَّ صــاحِبي عــن النغــزِ و الــوكزِ لبغلتِــهِ... شــكرتْني البغلــةُ بعــينٍ دامِعــة، ثــم دخلنــا السوق.

***

الورطة الخامسة

طقوسُ الدفن

أيـــنَ جســـدي؟ و هـــل أنـــا في وعيٍ بحضـــورهِ أم أنـــا واهـمٌ أنْ أكـونَ جسـدي؟ و مـا حـدود فهـمي و اسـتيعابي لهـذا الغشـاء المنسـوج مـن لحـم و عظـم و جلـد و أشـياء أخـرى تبينُ لي و أستوعِبُها مدركاتٍ في حسِّي المباشر؟

لـــمَ هـــذا الســـؤالُ و أنـــت النـــازحُ مـــن عقيـــدة الإســـلام؟ ســـألنِي صـــاحِبي و نحـــن نســـيرُ في اتّجـــاهِ الســـوقِ البلديّ، أنا على بغلي، و هو ممتطٍ بغلته.

قلـــتُ في يقـــين المـــؤمن: و هـــل يمنـــعُ إســـلامي سؤالي؟

قال متحاملاً: سوالك علمانيٌّ، والسؤال بدعة .

أفلتَـــتْ منـــه هـــذه العبـــارة مثـــل ســـهمٍ أعـــوجَ مرشـوقٍ إلى صـدري. فمـا كـان مـنّي أن أتفـادى الرّميـةَ عـلى علـمِي أنهـا لـن تُصـيبَني. و مـا أصـابني فعـلاً و بصـدمة غريبـة هو عقل صاحبي الّذي يقبعُ في الضباب .

صـمتنا برهـةً نسـتمع فيهـا إلى وقـع الحـافر عـلى أرضِ (التّـيرسْ) الرطبـة، و لـم يكـن يشـوبُ هـذا السـماعَ شيءٌ سـوى سقسـقة بعـض العصـافير الباحثـة عـن لقطهـا في أديـمِ تُـرْبٍ غادرتـهُ تـوّاً ماكينـاتُ الحصـاد الأعجميـة. فكّـرتُ أن أُصـوِّبَ لصـاحبي فكرتَـه، ثـمّ أحجمـتُ. وعـوضَ ذلـك مـرّرتُ تصـويبي في غـلافٍ آخـر. اقترحـتُ عليـهِ لتزجيـة زمـنِ الرحلـة أن نحصيَـ أنـواعَ الطيـور العابثَـة في سـمائنا القريبـة. استحسـن الفكـرة و اطمـأنّ قلـبِي جـدّاً لأسـباب كثـيرة، منهـا أن البغلـة المسـكينة ستسـتمتِعُ بهدْنـةٍ و لـو عـابرة تـرحمُ ظهرَها المثقوب من شدّة و معاودةِ النغز.

فصـيلة (الجـوش) أكـثر الطيـور، ثـم (تِيبيـبطْ) و ثالثـاً طير(اڭْريڭـرْ) و أنـدرها طـير السـمّان... سـألتُ صـاحبي و هـو في غمـرةِ التتبـع للطيـور: هـل تـعي هـذه الكائنـاتُ أجسـادَها؟ انطـوتْ عليـه الحيلـةُ لأنـه أبـدى اسـتعداداً جمـيلاً للتفاعـل. و لـم ينتبـه للكمـين الّـذي نصـبْتُه لعقلـه كي أسـتدرجه للمحـاورة. قـال في يقـين المتخصصـين في عـالم الطيـور: الحيوانـات لا عقـل لهـا كي تـعيَ أجْسـادَها. إنهـا مـأمورةٌ. و تسـتجيبُ لغريزتهـا في تربيـب أجسـادها و تنميتهـا.

هــذا كـلّ مـا في الأمـر. قلـتُ في هــدوءِ المـتربّص بـالهجوم: و هل نشبهُ - نحن البشرَ – الطيورَ في هذا النّزوعِ؟

و لــم يكــن ســؤالي عــن جســدي إلا ثمــرة انفعــالي بجســدي و تفـاعلي. فهـل أنـا منفصـلٌ عنـه في حركـات وعـيِ بـه أم إنـني منـدمجٌ فيـه؟ و الأمـر مختلـفٌ جـدّاً، لأنـني و أنـا أعقـلُ جســدي فـإنني أبـني المسـافةَ بيـني و بينـه. فـإذا كـان جسـدي أنـا، وأنـا جسـدي، فَلِـمَ لا يمـارِسُ هـو فعـلَ السـؤال عــن عقــلي؟ و إذا كـانَ عقــلِي مفارِقـاً لجســدي فلِــمَ وُصِــمَ بالحدود فيما عقلي استعصى على الحدود؟

خرجنـا مـن صـميم الفلسـفة و مـن صـميم الأرضِ المحصــودة إلى تخــوم الطريــق المعبّــدة. حينـــذاكَ لفـــتَ انتِباهَنـا جسـدُ كلـبٍ دهسـته سـيّارةٌ نكـرةٌ مارسـتْ في عمليـةِ دهسِـها كـل الخبـثِ الممكـن و الكـامنِ في الإنسـانِ الـدّاهس. قـالَ لي: لِـمَ وصـمتَ هـذا الإنسـانَ بالخبـث؟ قلـت: لأنـه لـم يوقـفْ سـيّارتَهُ كي يسـتطلعَ خـبر المـدهوسِ إن كـان فيـه قيـدُ حيـاةٍ فيُسـعِفه... قـال: و مـا أدراكَ أنـه لـم يتوقّـفْ؟ قلـت: لـو توقّـف لتغـيّر مكـان الجسـد المسـجِيِّ مـن وسـطِ الطريـق إلى جانب الطريق...

ابتسمتْ بغلتُه شامتةً فيما بغلي أنا، كان يضع حافر رجله اليمنى على فمه يواري ضحكته الهستيرية عن نظر صاحبي. و كان يمشي ـ في هذه الهنيهة بثلاث، و كان سعيداً بهذا الإنجاز. و يفخر لأنني لم أنزعج من تبدّل إيقاع المشيةِ و لو قيد أنملة.

اقتنص صاحبي هذا المشهد الذي خرج من دائرة الغرابة إلى دوائر المألوف، حيث لم يعد يحرّكُ فينا حادث دهس الحيوانات أي شعور. قال: ما قيمة هذا الجسد المطروح عبثاً في الطريق؟

أراكَ يا صاحبي تلمزني بأطاريحي عن سؤال الجسد؟ لم أفكر كثيرا في الرد، و قد حال بيني و بين ذلك أن سمعتُ بغلي يهمس لبغلته برغبة قديمة اندفنتْ في وجدانه. قالت البغلةُ: و ما ذاك يا بغلي العزيز؟ قال: أتساءل منذ نعومةِ حوافِري لِمَ نُتْرَكُ عند موتِنا للعراء يأكلُنا الزمنُ حتّى نتلاشى؟ قالت: و ما البديل أيها البغلُ المتذاكي؟ قال: لِمَ لا نُدْفنُ نحنُ أيضاً و بطقوسٍ بهيميةٍ خاصّة؟ قالت: أتساءلُ معك كيف يكونُ لون كفننا، و

كيـــف ســـتكونُ مآثِمُنـــا؟ ضـــحكا حـــتى بـــدتْ نواجـــدُهما و كتمتُ ضحكتي عن صاحبي.

ســـمعتُ و اســـتمتعْتُ و لـــم أُبْـــدِ ردّة فعـــل، و مضـــيْنا صـــامتينَ نحـــن الأربعـــة، إلا مـــن صـــوت صـــفائح الحـــوافر الحديديـــة توقّـــعُ إيقاعاتهـــا الرتيبـــة عـــلى الإســـفلت. أدركـــتُ في آخـــر المنعطـــف أن صـــاحبِي اســـتغرقَهُ التفكـــير حـــتّى نسيَ وخـــز بغلتـــه المســـكينة. نظـــرتِ الْبغلـــةُ إليّ بعـــين دامعـــة و شكرتْني ثمّ دخلنا السوق البلديّ...

الورطة السادسة

سؤال العقرب

كـم يسـعنا مــن جهــدٍ كي نمحــوَ مــن كينونتنــا كــلّ الممكنـاتِ لنُـبْقِيَ فقـط عـلى عـامرِ الاحتمـالات؟ هـذا السـؤال أرّقَـني و قـضّ مضـجعِي مـراراً و أنـا في كامـل رغبـتي أن أغـطّ في نـومتي بعـد سـحابة نهـارٍ مجهـد. كنـتُ أغـبِطُ صـاحِبي و هـو يشخرُ على سرير الحطبِ دون إحساسٍ بالزمن .

كنّـا قـد انتهينـا مـن جمـع محصـول العـام مـن غلّـة القمـح و الشّـعير. و كنّـا نبيـتُ الليـل في الخـلاء، حمايـةً لرصـيدِ تعَبِنـا مـن اللصـوص. كانَ الـزمنُ في عمـقِ وجـودي هـذه الليلـة عـدوّاً يمشـقُ سـيف الأرق في وجـهِي، و يحـوّل مُـدْرَكي للثـواني و الـدقائق و السـاعات إلى دهـورٍ مـن التفكـير. قلـت لنفسيـ: إن هي إلا فكـرة، فلِـمَ هــذا الأرق؟ رددتُ: لـيس بيـدي حيلـة، فأنــا مــؤرّقٌ مختــارٌ لأنّ الفكــرة الآن نــواةٌ وغــداً هي مشرــوع كتاب .

اســتغْربتُ لفكــرةِ الــزمن الــتي تبــدو لي الآنَ مــاكرةً جـــدّاً و مستعصـــية عـــلى الحـــدّ و التحديـــد و ســـياجات المفهـوم. فمـا أعيشُـهُ أنـا دهـراً ممتـدّاً و طـويلاً مُمِضّـاً، يعيشـهُ صـاحبي الغـاطُّ في النـوم دقـائق معـدودة. و سـيأتيك بـالخبرِ الصباحُ القريب عندما تسأله كيف قضيتَ الليلة؟

أخرجْـتُ مـنْ قِـرابي قلمـاً و قرطاسـا، و شرعـتُ تحـت ضـوء شـمعةٍ وجوديّـةٍ في تـدوين تهويمـاتي اللّذيـذة عـن الـزمن و الليـل و الوجـود و الكينونـة. فجـأةً لفـتَ نظـري مـرور خنفسـاء في هزيـع هـذا الليـل، سـوداء تفخـر بسـوادها في مشـيتها البطيئـة. و مـن قـال لـك إنهـا بطيئـة؟ أنـت الآن خـارج منطـق الكينونـة، مادمـتَ قـد حكمـتَ عليهـا بـالبطء بمعيـار خطـوكَ البشريّ و خطـو بغلـك و خطـوِ بغلـةِ صـاحبك. و لِـمَ لـم تـتقمّصْ كينونتهـا كي تعـرف هـل هي في بدايـة سرعتهـا أم في سرعتهـا النهائيـة، و هـل هي تسـير بأمـان أم تـركض هاربـة من خطر محدق؟ و هل و هل و هل...؟

غلَبْتَـني أيهـا الأنـا المحـاور و المُجـادل و المُـورّط. و كيـف لي بهـذا العلـم و مـا أوتيـتُ منـهُ إلا قلـيلا؟ أنـت مـن تجـرّأ و نظـر إلى الخنفسـاء و حكـم عـلى وضـعها في السـير. و لـو غضَضْـتَ الطـرف عنهـا لمـا أقحمـتَ ذاتـكَ في هـذا السـؤال الوجـودي. و لكنـني جـد سـعيدٍ بهـذه الورطـة، فـهي عـلى الأقل تمدّني بمادّة دسمةٍ للتحبير و التعبير.

إذن أكتـب وجودهـا في وجـودك، و اضـمم خطوها إلى خطوك، و سترى عجبا .

ضـــممتُ يـــراعي إلى صـــدري و قـــررتُ النـــوم مثـــل صـاحبي كي أعـيش بقيـة الـزمن خاطفـاً مخطوفـاً مثلـه. لكـن النعـاس فـرّ مـن أجفـاني و عـاداني و خاصـمني. و بينمـا أنـا أهـمّ بالتمـدد، إذا بي أسـمع خشـيشَ الهشـيم، قلّبـتُ مكانَـه فضـولاً مـنّي فـإذا هي عقـربٌ تـتربص بيَ الـدوائر. انتـابتني قشـعريةُ خـوف مـن طبيعـة بشرِيّتي الـتي بناهـا تمـثّلي لهـذه الحشرـة و الـذي صـاغهُ أبي و أمي و جـدّي و جـدّتي و كـلّ الـذين ذاقـوا وبالَهـا. حملـتُ في غـير تفكـير نعـلي و هممـتُ بضربـها، فـإذا هاتفٌ داخلي يمنعُني من ذلك.

تـذكّرتُ مقولـةً قديمـة كـانَ يلوكهـا أهـل الـدوار و أنـا في نعومـة أظـافري تقـول (إذا رأيـت الخنفسـاء فـاعلم أن العقرب تتعقّبها) ...

هـذا الخـبر القـديمُ صـمّم قـراري أن لا أقتلهـا. و أن أتمعـن في خلقتِهـا و هي تهـيم عـلى وجههـا باحثـةً عـن شيءٍ أجهلـه تمـام الجهـل. أفرغـتُ ذهـني مـن كـل التمـثّلات القديمـة عـن هـذه الحشرـة و صـمّمتُ أن أقرأهـا في وجودِهـا لا في وجـودي، و أن أشرحهـا في كينونتهـا لا في كينـونتي المبرمجـة. و وجـدت أن أقـرب آليـة لفعـل و تفعيـل ذلـك أن

أسـألها مبـاشرة دون ليّ أعنـاق مفرداتهـا في تـأويلاتٍ محتملـة. أسـعفيني أيتهـا العقـرب بممكنـات الاحتمـال في صـورتك و في ماهيتك و في هويتك...

قالـــتْ: أراك تخلـــص لمقـــدمتك. و تريـــد أن تقـبض عـلى فـائض المعـنى، و عـامر الاحتمـالات مـن خـلالي أنـــا النكـــرة في أرض الله الواســـعة... و مـــا الضـــيرُ في ذلـــك سيدتي العقرب؟

هـا أنـت تفـكّ أول خـيط لـكَ في التيـه و الضـياع يـا عـاقلاً يمتلـك القلـم و القرطـاس. و كيـف ذلـك يـا سـيدتي؟ أنـا أوضـحُ لـك: أنـت تُخـاطِبُني بخطـاب الأنـثى. و تخـاطبني بيقـين لأنـك كرّرتهـا مـرّتيْن. فمـا حملـك عـلى هـذا الحسـم و القطـع و البـثّ في جنسيــ و نـوعي؟ و لِـمَ لا أكـونُ عقربـاً ذكرا؟

أحسسـتُ بالخيبـة و قـد سـقط في يـدي... فهـذا كـائنٌ لاعاقـل يـبزّ عـاقلا. فسـبحان مـن وضـع سرّه في ضِـعاف خلقـه. فكـرتُ في أن أسـألهُ أسـألَها عـن جنسـه عـن جنسـها فأحجمـتُ حـتى لا أصـغرَ في قرنيْـهِ في قرْنيْهـا... ربّـاهْ ! مـا هـذا

العـذابُ النـازحُ مـن تَلَـفِي في اسـتعمال الضّـمائر؟! و هـل مـن مخـرجٍ لي مـن هـذا المـأزق؟ سـمعَ العقـربُ أو سـمعتْ مقـالتي و قـد همســتُ بهــا فقــط، فأدركــتُ أنــني لا أملــك التأويــل الصـحيح أو المتـاخم لكينونـة العقـرب و الخنفسـاء و البغلـة و البغــل. قــال، قالــتْ: اســألني و أنــا أجيبُــك. قلــتُ: لا... و شـكرا لتعاونـك بفـتح حـرف الكـاف و كسره، و مـا انكسر شيءٌ سـوى عقـلي الّـذي عجـز عـن اقتحـام هـذه الحشرة المتناهيـة في العمق .

اســتمر العقــربُ في تجاهلــه لوجــودي المســتكين إلى عبـث السـؤال، مـرّ بجانـب صـاحبي الّـذي لا يسـأل و لا يُسـأل و لا يتسـاءل. و أذكـر أنـني لـم أخـشَ عليـه مـن غـدر العقـرب و لـم أدرِ لِـمَ ... و لكنـني تـذكّرتُ مـع ذلـك نظـرة العقـربِ لي في عتـاب يهمـس لي أنـني عنـدما فكـرتُ في غـدرهِ لـم أفقـه بعـدُ كينونتـه و لـم أفقـه أيضـاً عمـق الاحتمـال الّـذي أبحث عنه في ماهيات الوجود و الموجودات...

الورطة السابعة

ثور عائشة

ذاتَ زِيــادَةٍ في شــحْم المعْلــوفِ، كانــتْ عائشـــة حريصــةً عــلى ترتيــبِ مواقِيــتِ التنكيــلِ بالسّــائمة الســوداء الراقِــدة في عتْمــاتِ الرغْبَــة. و كانــتْ تترقّــبُ خــروجَ الضــوءِ ســميناً مثــلَ كــيسِ جارِهــا البخيــل. لكــنّ مسلســلَ النّمــاءِ تعطّــلَ، و تــراخى تكْــديسُ طبقــات الشــحْم في شرْط نُــزوحِ الدّخيلِ.

ذاك أن الغايـــة تــبرّر الوســيلة في عـــرف القائـــل المتجــذر في المعرفــة، و في عــرف عائشـــة المؤرّخـــة في غـــير وعيٍ لتاريخهــا الشخصي ـ و الصـغير مـع ثـورْين مـن فصـيلتيْن متباعــدتيْن أشــدّ التباعــد و تختلفــان أشــد الاخــتلاف، لكنهمــا تلتقيــان في مشــترك واحــد هــو الســمنة في اتجــاهين : واحــدٌ استثمارٌ للسوق و ثانٍ استثمارٌ للرغبة.

و حـــدث أن زار القريـــةَ أحـــدهم، نازحـــاً مـــن الشــمال... كــانَ وســيماً بشُــقْرَة نــادرة، ذَكّــرتْ عائشــة بــأفلام الخمســينات حيــث تقنيــة الأبــيض و الأســود كانــت شرطَ جماليــة مُلْهِمَــة. و كـأن هـذا الموصـوف و الموسـومَ بـالحظوةِ كتلـة مـن الزبـد الـنقي البيـاض الخـارج مـن لـبن أشـد بياضـا مـن

شكوةٍ مخضتها بلديةٌ داريةٌ عارفة بتفاصيل الرغوة و الجوهر الحليبي...

جاورَها الدّخيلُ في عبورٍ موسميّ حتّى يستكمِلَ مهمّتَه الرسمية. و جرى التيار بينهما في انسيابية، مقصودة و مصنوعة من جهته، فيما كانت تلقائية وبريئة من جهتها. سار المسارُ في اتجاه خطةِ الغريب أو نيته حتي يكون السرد موضوعياً ، و في غضونه انشَغَلتْ عائشة بإكرام الدّخيل استجابة لفطرة مغرِبية تُقْرِي الضّيف و لو كانَ غريباو انتهى القريُ باشتعالٍ من حطبٍ و في حطبٍ واحدٍ فقط ...

ثمّ حدثَ أنْ نسيتْ عائشَةُ سائمَتها السوداء دهْراً، لأن البديل أجدر بالعناية و التربيب و الترتيب.

خسّتِ الدّابّة الموعودةُ لسوقٍ مُرْبِحة فيما اكتنزَ الدّخيل حتّى اخْتفى أنفه وسط وجنتيْهِ و بدا مثل طفلٍ يغْرِي بالتّقبيل. و كانَ هذا يُسْعِدُ عائشةَ فيما الثوْرُ المسكينُ كان يتراجع عن مشروع عائشة المربح فيحدث أن يغبط الثور غريمهُ الأشقر أو كان أن كاد يحسده .

لـم تـكُ عائشـة تقلـقُ إلا حينـاً بعـد حـينٍ مُتراخيـةٍ في الـزمن، حيـث كـان الـدّخيل الأشـقر يخـتفي أسْـبوعاً في كـل شـهر. و حـدثَ أن سـألتْه عـن سرّ هـذا الغيـاب المنـتظم. كـان ردّه بسـيطا بعمـقٍ مـاكر، كـان يسـافر إلى العاصـمة لمصـلحة إداريـة. و أفْحمهـا الـردّ، لأنهـا كانـت تسـمع بـأذن عاشـقة و تبصر بعـينٍ أعشـق. و لـم يخطـر ببالهـا إلا الخـير الـوارد مـن هـذا المعشـوق، فكـم عشـقاً أعـمى صـاحبه، وبـالأحرى صاحبته...

بعـد حـينٍ، اخـتفى الأشـقرُ، و طـال اختفـاؤه و عائشـة لا تصـدق ، و تـرفض مـن يتحـدث عـن هـذا الـدخيل بسـوء، و تـرفض الكـلام و المـلام و النـاس و الثـور و كـل شيءٍ خـرج عـن دائـرة الأشـقر، إلى أن سُـمِعَ يقينـاً أنـه كـان يرفَـعُ تقـارير دسـمةٍ حـول أحـوال القريـة الحاضـنة لعبـوره، و القـرى المُجاورة، إلى قسم المخابرات الشقراء هناك.

و عنـدما اسـتفاقت عائشـة مـن نومتهـا العسـلية تـذكّرت سـائمتها البريئـة. توجّهـتْ مهرولـةً إلى زريبـة ثورهـا الأسـود. نفـقَ الثـور الأسـودُ فيمـا الثـور الأشـقر راح بسـمنته

المجانيــة و تــلاشى في المجهــول و ذاب و أذاب قلبــاً غــرّاً قُــدَّ من سراب...

الورطة الثامنة

تحليقُ الروح

في مكتــب الاســتنطاق الســياسي، تلــقّى المشــكوكُ في نيّتــه صــفعةً ثانيــةً غــير متوقّعــة عــلى خــدّه الأيسر. و تلــقّى معهــا شــكلاً مــن أشــكال الإهانــة القاســية، و الــتي سرعــان مــا ذابــتْ في غياهــبِ التحويــل القــيمي، المشرــوط بمرجعيــة الابــتلاء. فهــو يمتلــك تاريخــا مــن المرجعيــة الــتي ربّتــه عــلى توقّــع الامتحــان و الاختبــار في أي لحظــة و مــن أي جهــة، كــل ذلــك مــن منظورالآيــة و ســحرها الربّــاني ﴿ أَحَسِــبَ النَّــاسُ أَن يُتْرَكُــوا أَن يَقُولُــوا آمَنَّــا وَهُــمْ لَا يُفْتَنُــونَ﴾ ســورة العنكبــوت الآية 2

احتســب صــاحبنا هــذه الصــفعة لله، و اعتبرهــا أولاً صــورة لفتنتــه الإيجابيــة القاضــية بالانبنــاء الــداخلي، و القــادم مــن مشــكاة النبــوة... واعتبرهــا ثانيــاً شــكلاً مــن أشــكال ضريبــة الإيمــان. ثــم ارتــمى في حضــن الصــحابي الجليــل (بــلال بــن ربــاح) و هــو يــرزحُ تحــتَ عنــف الصــخرة المعجونــة في خمــير المــوت. فتضــاءلتْ بــذلك أوجــاع الصــفعة و تحــوّل إحساسه بالألم إلى رجاءٍ كبير في الأمل.

و لمّـا كـاد فتيـل الصـبر أن يخمـد، ارتـمى في صـدر يوسـف عليـه السـلام، فوجـد في صـبره الممـضّ حـلاوة لا مثيل لها، ثم قرّر أن يخلع من قاموسه فكرة الألم...

هكـذا تحـوّل الخـدّ إلى صـفيحٍ سَـديميٍّ أكـبر و أقـوى مـن اليـد الصّـافِعة و صـاحبها، فتقزّمـا في عينيـه و اخـتفى كـل إحساسـه بآثار التعذيب الجسدي. ثم انتصر ...

انتصرـ عـلى كـل الفضـاء بكـلّ تداعياتـه القريبـة و البعيـدة، و بكـل العنـف الممكـن الـذي يختزنـه المشـهد. ثـمّ اشرأبّ عنقـه إلى هنـاك، و مـا أدراك مـا هنـاك، حيـث لا يـدرِك هـذا الهنـاك مَـنْ حَوْلـه مـن بيـادقَ تنفّـذُ في غـير وعيٍ، و تـنزّل العقوبـات في غـير إدراك ... و عِـوضَ أن يحقـد عـلى هـذه الأدوات و يقـرّر الانتقـام منهـا لاحقـاً عـلى شـتّى المنـابر، حـوّل بوصـلةَ الانـدفاع إلى قـرار الإشـفاق، فـأحس بقـوة الروح تعلو على السفاسف. ثمّ ارتقى ...

ارتـقى حـتّى عـلا. و لمّـا عـلا، شـطّ في البعـد، و لمّـا بَعُـدَ، بـدتْ لـهُ ذاتُـهُ فرقـداً، فيمـا بـدا غـيْرُهُ نقطـا سـوداء، ضـئيلة و غايـة في الـتّلاشي. لـم يهمّـه بعـد ذلـك إن أخـذوا منـه

بعــض جســده أو جلّــه أو كلّــه، و لــم يهمّــه أيضــاً أن فقّــروه و ألغــوا ملكيتــه لعقــار أو دار أو مــالٍ بــوار ... و همَّــهُ أن نجــتْ روحه و حلّقتْ و شطّتْ في التحليق.

ســأله المســتنطق: مــاهي رغبتــك في آخــر الــدمع؟ ردّ في يقــين: بــل مــا هي رغبتــك أنــت في بدايــة الــنزول؟ و لمّــا لــم يفهــم الســطحيُّ خــبر العــارف والعرفــان عالجــه بضربــةٍ قويــة مــن ســوطه المفتــول. اســتغرب لعــدم الاســتجابة للألــم، فيمــا صــاحبنا ابتســم في يقــين و رأى روحــه تخــرج منــه و تغادر هذا الجسد المهين...

الورطة التاسعة

ورطةُ الجِهاتِ النّائمة

" رَأَيْــتُ الْعَبَــثَ وَ لَــمْ تَضِــقْ يَــدايَ بِسُــكونِ الْجِهــاتِ النَّائِمَــةِ. وَ رَأَيْــتُ خَــرائِطَ الْفَــرَحِ تُعِــدُّها بِمَكْــرٍ، ثَعالِـبُ الْوَقْـتِ الْعـابِرِ فاتَّسَـعَتْ بُقَـعُ السَّـفَرِ في قـدمِي. و لَمَّـا رُمْـتُ انْتِشـالَ الْحُقـولِ مِـنْ ضُـباحِ الْكائِنـاتِ اللَّوْلَبِيَّـةِ فَـرَّتْ مِـنْ أَصـابِعِي كُـلُّ الـدّالِياتِ. سَـقَطَ الـدَّمْعُ في جَيْـبِي الْمُعَلَّـقِ في فَهـارِسِ النِّسْـيانِ، فَتَّشْـتُ في قاعِـهِ عَـنْ دُرَيْهِمـاتٍ أسُـدُّ بِهـا ثُقـوبَ الْحُقـولِ الْمَسْـلوخَةِ فَلَـمْ أَجِـدْ رَنينـاً، وَ وَجَـدْتُ بَقايـا مَخالِـب، وَ نُتْفـاتٍ مِـنْ زَغَـب وَ حُشاشَـةً مِـنْ روح وَ بَعْضَ أحْلام كانتْ دَفِينَة. "

مــاذا تَقــول أيّهــا الْمعْقُــوفُ في يــدِ الكـلام؟ و هــل أنــتَ شــاعرٌ فقــدَ بوصــلةَ البيــان أم حــاكٍ تــاهَ عنــهُ غــزالُ المَجاز؟

انــا الحــاكِي و الْمحــكِيُّ عنــه. و أمّــا العبــثُ أعــلاهُ فـبعضُ السّـلوك. و أمّـا الجهـاتُ النّائمَـة فـبعضُ السّـكوت. و أمّــا خــرائطُ الْفــرح فــبعضُ الانْفِــراجِ في ســيماءِ العسْــف و الخسْفِ و...

هــل أنــتَ تشْرَــحُ لي؟ و هــل بــدوْتُ لــك جــاهلاً بمسارِب الْكلام؟

ســيدي... لا تقلــق و لا تنــدفع فلــيس قصــدي أيُّ إهانــة أو مــا شــابه. كــلّ مــا في الأمــرِ أن الرّغبــةَ في الكتابــة انزاحــتْ نحــو التغمــيضِ الــدّلاليّ بِقصــدٍ يُنــيخُ بــالمحْكِي في أرْضِ النّخبـــة. و لا أرانِي جانَبْـــتُ صـــواباً إذْ ضـــيّقْتُ أفـــقَ الاستِقْبال. أليسَ من حقّي و أنا الحاكِي أن أختارَ قُرّائي؟

ســـأتركُكَ إلى نخبَتِـــكَ و أغـــادِرُ حمـــاكَ. ولـــيس مطلوباً منّي أن أذعِن لهذيانِك...

لك ما تشاء...

قــال الحــاكي: و في غمْــرةِ انتصــارِ الثّعالِــب عــلى نقــاءِ الــتّراب، دلفــتُ أنــا المحــكِي عنــهُ إلى ثقــوبِ البسْــتان. عــبرْتُ شُــعاعَ الثّقــبِ الْوحيــد الــذي نســلتْ منــهُ فصــيلةُ ابــنِ آوى. وجــدتُ المقــاسَ أكْــبَرَ مــن بطنِهــا، فعلمــتُ أن الثعالِــبَ استأْسَــدتْ و تكــوّن أو تكــوّمَ عــلى صــدرِها لِبْــدٌ كثيــف. و علمْــتُ أيضــاً أن بعــض الجهــاتِ النّائمــة تســتيقِظُ في حالــةٍ

واحــدَةٍ عنــدما تُــدرِكُ أن الثعالِــبَ في مــأزق. فتصــنعُ لهــا وجْهاتٍ أخرى أنسبُ لمواقِيتِها الثعْلبِيّة.

قــالَ الّــذي انتدبتْــهُ الثّعالِــبُ: أعلــنُ باســمِ كــل الثّعالِــبِ أن الأمــر لا يعْنِينــا، و أن الثّقــبَ لــم يــدْلِفْ منــهُ و لا ثعْلـبٌ واحِـد. و إنهـا لفرْيـةٌ عظيمـةٌ مـا جـاء بهـا زمـان. نحـنُ لـم نَلـجِ البســتانَ و لــم نسرِـقْ غلّتــه، كمـا لـم نبـدّل فرواتِنـا أبـداً. فــابحثوا عــن الفاعــلِ و لا تمشــوا في تحقــيقكم هــذ الممشَىــ المغلــوط و الّــذي ســيودي بكثــيرٍ مــن الثعالِــبِ البريئــة. و فضـلاً عـنْ ذلـك فشـبَعُنا فيمـا يغمُرُنـا مـن رزقٍ غـابويٍّ يكفِينـا و الحمدلله على نعمِه.

" رَأَيْـتُ الْعَبَـثَ ثانِيـاً وَ لَـمْ تَضِـقْ يَـدايَ بِسُـكونِ الْجِهــاتِ الْنَّائِمَــةِ. وَ رَأَيْــتُ خَــرائِطَ الْفَــرَحِ تُعِــدُّها بِمَكْــر، ذِئـابُ الْوَقْـتِ الْعـابِرِ فَاتَّسَـعَتْ بُقَـعُ السَّـفَرِ في قَـدَمَي .وَ لَمَّـا رُمْـتُ انْتِشـالَ الْحُقـولِ مِـنْ ضُـباحِ الْكائِنـاتِ اللَّوْلَبِيَّـة فَـرَّتْ مِـنْ أَصـابِعي كُـلُّ الـدّالِياتِ. سَـقَطَ الـدَّمْعُ في جَيْـبِي الْمُعَلَّـقِ في فَهـارِسِ النِّسْـيانِ، فَتَّشْـتُ في قاعِـهِ عَـنْ دُرَيْهِمـاتٍ أسُـدُّ بِهـا ثُقـوبَ الْحُقـولِ الْمَسْـلوخَة فَلَـمْ أَجِـدْ رَنينـاً وَ وَجَـدْتُ

بَقايـا مَخالِـب وَ نُتْفـاتٍ مِـنْ زَغَـب وَ حُشاشَـةً مِـنْ روح وَ بَعْضَ أحْلام كانتْ دَفِينَة. "

أهـذا أنـت ترجـعُ بعـد أن غـادرتَ حكْـيِي و وصـمتَه بـالنّخبوِيّ؟ مرحبـا بحضـورك مهمـا كـان موقفـك، فأنـا أعتـبرك نُخْبَويّاً بامتِياز.

سـيدي، كـل مـا في الأمـر أن مسـارَ الحـكْيِ انبعـثَ مُشوّقاً فقرّرتُ أن أستمْتِع.

مرحبـا بقلبـك و عقلـك و سـمعك و كـل جنـود استساغاتك.

يبـدو أنّ المسـألةَ سـتأخُذُ مجـرىً آخـرَ غـيرَ الـذي خطّطـتْ لـه الجِهـاتُ النّائمـة. و أنّ الثعالِـبَ بمكرِهـا الغريـزيّ أسـقَطتْ كفّـةَ المتلاعِبِـين و كسّـرتْ أجنـداتِهم تكسـيراً سـينجُمُ عنـهُ الكثـيرُ مـن الضّـرر. و لـولا صـبْرُالجهاتِ و اسـتعانتُها بـالخبراتِ الأجنبيـة و المتخصّصـة و المُكوّنَـة أشـدّ التكوين لكلّفها الأمرُ خيباتٍ لا قِبَلَ لها بتجاوُزِها...

هكــــذا تحـــوّل الـــدمعُ في مجـــراهُ... فمســـحتِ الجهـــاتُ النّائمـــةُ التّهمَـــةَ في معشرِـــ الـــذّئابِ. و ألْصـــقَتْها بمكْرِهـــا اللّـــولبِي. فشـــاعَ بـــينَ الأنـــامِ أن الـــذّئابَ دلفـــتْ إلى البســتانِ و سرقــتْ مــا سرقــتْ و عاثَــتْ فيــه مــا عاثَــتْ و دمّــرتْ وخرّبــتْ و أفسَــدتْ . انطلــتِ الحيلــةُ زمنــاً عــلى الإعــلامِ و المثقّفــينَ و بــاقِي الــدهْماء و ســائرِ الأنــامِ. حــتّى أوشــكَ كــلّ ذِئْــبٍ عــلى الرحيــلِ مــن الــبِلادِ جــرّاءَ هــذه الوصــمة و هــذا الْبلاء.

انــبرى ذِئْــبٌ مثقّــفٌ مــن عامّــةِ الــذّئابِ و يبــدو مــن تعــابيرِهِ أنــهُ اشــتغلَ ســابقاً في المحامــاة. قــال و العهــدةُ عــلى الــرواي: لــم نشــغلْ بالَنــا نحــنُ معشرــ الــذئابِ بالسّرِــقَة إلا لجــوعٍ اعــترضَ بطــونَ صــنفِنا أو لخصاصــة هــدّدتْ فصــيلَتنا أو لســغبٍ شــديد وضــعَ انقِراضَــنا في مــيزان الموجــودات. و أمّــا اللمْــزُ مــن جهــاتٍ معلومــةٍ أو مجهولَــةٍ بأنّنــا نمثّــلُ متّهمــا أو مُــداناً في قفــص الاتّهــامِ أو مــا شــابَه، فــأمرٌ يبعــث عــلى الضــحك، لأن الإشــارةَ واضــحةٌ أوضــحُ مــن شــمسٍ في ظهــيرة. و إنّنــا مــن هــذا المنــبرِ المــوقّر نقــول لا لكــلّ أفّــاكٍ أثــيم. و نشــجبُ التهمــةَ قبــل الفعــل ، و نــدين مــن وصــمنا بــأدني صــفة. و ليطمــئنّ الفاعــل أننــا لــن نــألوَ جهــداً في المتابعــةِ

القضـائية حــتّى نــبرّئَ ســاحتنا مــن هــذا الــذي كـان، بفعــلِ فاعل موبوء...

لــم يغمــض لِلْجهــاتِ النائِمــة جفــنٌ و لا اســتراحَ لهـــا جنـــب. و قضـــت مواسِـــمَ حصـــادِ الانتخابـــات و الترشـيحات في قحـطٍ بـائنٍ و محـلٍ أبْـين. تجـرّ ذيـولَ هزيمَتِهـا خلفهــا أينمــا حلّــتْ وارتَحلــتْ. و لمّــا ضــاقَ بهــا الأمــرُ ذِرْعــاً جنّـــدتْ للأمـــر جيشـــاً عرمْرَمـــا مـــن جنـــودِ الشـــبكات العنكبوتيـــة، تســـتثمرُ الوســـائط الاجتماعيـــة في التشـــهير بالفاعــل الحقــيقيّ الــذي وضــعتْ فيــه ثقَتهــا العميــاءَ و انصدَمتْ فيه أشدّ الصدمات...

الْصقَتْ إفْساد البستانِ لفصيلةِ الكلاب.

" الآنَ رَأَيْـتُ الْعَبَـثَ وَ لَـمْ تَضِـقْ يَـدايَ بِسُـكونِ الْجِهــاتِ الْنَّائِمَــةِ. وَ رَأَيْــتُ خَــرائِطَ الْفَــرَحِ تُعِــدُّها بِمَكْــر، كِلابُ الْوَقْـتِ الْعـابِرِ فَاتَّسَـعَتْ بُقَـعُ السَّـفَرِ في قَـدَمَي .وَ لَمَّـا رُمْـتُ انْتِشـالَ الْحُقـولِ مِـنْ ضُـباحِ الْكائِنـاتِ اللَّوْلَبِيَّـة فَـرَّتْ مِـنْ أَصـابِعِي كُـلُّ الـدّالِياتِ. سَـقَطَ الـدَّمْعُ في جَيْـبِي الْمُعَلَّـقِ فِي فَهـارِسِ النِّسْـيانِ، فَتَّشْـتُ في قاعِـهِ عَـنْ دُرَيْهِمـاتٍ أسُـدُّ

بِهـا ثُقـوبَ الْحُقـولِ الْمَسْـلوخَة فَلَـمْ أَجِـدْ رَنينـاً وَ وَجَـدْتُ بَقايـا مَخالِـب وَ نُتْفـاتٍ مِـنْ زَغَـب وَ حُشاشَـةً مِـنْ روح وَ بَعْضَ أحْلام كانتْ دَفِينَة. "

سيّدي... و هل الكلابُ صاحبةُ الفعل؟

لا تتسرعْ يا صديقي. فأنا أربأ بك أن تكون ممّن يجتنون الثمارَ قبل نضجِها.

الحقيقة يا سيدي أنك شوّقْتني للنهاية حتّى نسيتُ نفسي، و وجدتُني كذلك المتفرج على شريط سينمائيٍّ عبر آلية اليوتوب، و وجدتُني كأنني أضغط على سهم التسريع لأحداث الحكاية. و الأمر في حقّه و حقيقته يُعاش حكياً و حياةً بتفاصيله الدقيقة. هذا فرقٌ سرديّ ينبغي أن نسجّله في مقامات الحكي المتعددة بين مكتوبٍ و مسموعٍ و مرئيّ...

لا عليك يا صديقي، فالأمر يوشِكُ أن يكون عامّا. فأنا غالباً ما أقع في هذه الرغبة.

في سـياقٍ مستضـعفٍ لـم يسـتطع كلـبٌ واحـدٌ ردّ التهمـة. و السـبب في ذلـك مرجعـهُ إلى أن الكـلابَ لا تحـظى بصـفة النّـدرة. فهـذه تلعـبُ دوراً في تـرجيح كفّـة المـيزان للثعالبِ و للذّئاب. و أما الكلابُ فشأنها مختلف.

قـد يقـول قائـلٌ مُعترضـاً عـلى تعليلنـا بـأن فصـيلة الكـلاب مـن نـوعٍ (البيتبـول) أو (الجولـدن) نـادرة. نقـول لـه وبسرعة الموقنِ من دليلـه، إننـا نقصـد بـذلك الكلاب الضّـالّة فقط. جفّتِ الأقلامُ و طُوِيتِ الصحف.

أفحمْتَـني أيهـا الحـاكي كمـا لـم يفعـل ذلـك حـاكٍ مـن قبـل. و إنـني لأشـهد لـك بالبراعـة في وصـم الحـكي بالموضوعية. فأين تعلمتَ هذا؟

تعلّمته في حلقاتِ أسواقِ الحي المحمدي.

دعنـا مـن هـذا، و قـل لي أيـن وصـلت حكايـة الجهات النائمة مع الكلاب الضّالّة؟

لـم تقـف الكـلابُ مكتوفـةَ الأيـدي أمـام هـذا العـار و هــذا الشّــنار. فــانبرتْ عــلى بكــرةِ أبيهــا إلى تفعيــل نقابــةٍ قديمــةٍ للكــلابِ كانــتْ قــد جمّــدتْ أنشــطتَها و لــم تُجمّــد أوراقهــا الرســمية. أعــادت هيكلتهــا بســرعة برقيــة و انتــدبتْ ناطقيهــا ليبلــوا بــلاء حســناً في صــدّ مــا هجمــتْ بــه الجهــاتُ النّائمــة و نقــضِ مــا حاكتْــهُ عبقريتُهــا الخائبــة. لــم تلجــأ نقابــة الكـلاب إلى بـديع القـول و حجـيج المرافعـة و جميـل البيـان و قــويّ البرهــان، و إنمــا لجــأت إلى فعــل المقاطعــة تنديــداً بالإساءة الحاصلة في حقّهم.

ســيدي، و مــا موضــوع المقاطعــة الــتي يمكــن أن تكون وازنة و مؤثرة و فاعلة و ناجعة؟

صبراً يا صديقي صبرا...

لــم أعــد أطيــق الانتظــار يــا ســيدي... هــات مــا عندك هات.

حــاضر يــا ســيدي ... إن فعــل المقاطعــة ســلوكٌ حضــاري و ســلمي لا يقترفــه إلا واعٍ بالمســؤولية. وقــد أُسْــقِطَ

في يـدِ الجهـاتِ أن صـدر هـذا الفعـل مـن الكـلاب. حـتّى ظنّتْـه قاصـمة ظهرِهـا. و قـد ركـزت نقابـة الكلاب عـلى مقاطعـةِ قـرار تسـميم الكـلاب بنشرـ الـوعي بـين صـفوفها بمغبّـات تنـاول هـذه المـواد القاتلـة الـتي تـرّوج لهـا الجهـات النائمـة للتقلـيص من عدد هذه الكلاب الضالة.

هـل أفهـم أن الكـلاب كانـت واعيـة بحمـلات التسـميم و كانـت تغض الطرف عن ذلك؟

نعم، سيدي... بعض الكلاب فقط.

هذا غريب جدّاً.

نعم، غريب و مؤسف و مأساوي.

و لمَ ذلك؟

تواطؤٌ من أجل البقاء في مقابل الإبادة الجماعية.

أكلّ هذا يحدث في بلادنا؟

نعم، و أكثر...

" هـا أنـا أرى الْعَبَـثَ وَ لَـمْ تَضِـقْ يَـدايَ بِسُـكونِ الْجِهـاتِ النَّائِمَـةِ. وَ رَأَيْـتُ خَـرائِطَ الْفَـرَحِ تُعِـدُّها بِمَكْـرٍ نـاسُ الْوَقْـتِ الْعـابِرِ، فَاتَّسَـعَتْ بُقَـعُ السَّـفَرِ في قَـدَمَي . وَ لَمَّـا رُمْـتُ انْتِشـالَ الْحُقـولِ مِـنْ ضُـباحِ الْكائِنـاتِ اللَّوْلَبِيَّـة فَـرَّتْ مِـنْ أَصـابِعي كُـلُّ الـدّالِياتِ. سَـقَطَ الـدَّمْعُ في جَيْـبِي الْمُعَلَّـقِ فِي فَهـارِسِ النِّسْـيانِ، فَتَّشْـتُ في قاعِـهِ عَـنْ دُرَيْهِمـاتٍ أسُـدُّ بِهـا ثُقـوبَ الْحُقـولِ الْمَسْـلوخَة فَلَـمْ أَجِـدْ رَنينـاً وَ وَجَـدْتُ بَقايـا مَخالِـب وَ نُتْفـاتٍ مِـنْ زَغَـب وَ حُشاشَـةً مِـنْ روح وَ بَعْـضَ أحْلام كانتْ دَفِينَة. "

سيدي... أراك حوّلْتَ الحكيَ إلى بني البشر.

نعـم، لأنّ البشرـ هـم مـن دلـف إلى البسـتانِ و سرقَ البسـتانَ و عاشَ في البستان ثم تركَ الثّقْبَ يتّسع في البستان...

الورطة العاشرة

جَبَلٌ أَطْلَسُ

فِي الْبَـدءِ، كَـانَ الْجَبَـلُ طِفْـلاً، لَكِنَّـهُ ذَاتَ خُـرُوجٍ، اِنْفَلَتَ مِنْ قَبْضَةِ الْحَلِيبِ.

قَضَـمَ مِـنْ شَـجَرِ الْحُلُـمِ، فَقَـأَ عُيُـونَ الْأَنْهَـار، ثُـمَّ انْدَسَّ فِي سِلَالِ الْعِنَبِ وَ أَزْهَارِ اللِّيلْيَا.

سَـــافَرَ فِي حِضْـــنِ النُّجَيْمَـــاتِ، تُشَـــيِّعُهُ تَراتِيـــلُ سِرِّيَّـة. وَ لَمّـا أَصَـابَ مِـنَ الْمَصَـبَّاتِ بَعْـضَ الـدخانِ مَاتَـتْ فِي كَفِّهِ الْمَنَافِضُ...

نَـــزَلَ الْجَبَـــلُ مقهـــوراً يَحْمِـــلُ أسْـــئِلَةً مُنْكَسِرَـــةً، وَ بَعْضَ رَغِيفٍ بَائِت.

دخـلَ المَدِينـةَ عاريـاً أو شـبهَ عـارٍ. لـم يجـدْ شـجراً كي يخســفَ عليــهِ مــن ورقِ التّــوت، و كي يــوارِيَ ســوأتَه، أو بعضــاً منهــا. فقـد اقتلـعَ المـدنيون كـلّ الشـجر و عوّضـوهُ بمصابيح ماردةٍ و عملاقة.

ثـمّ إن الطفـلَ جـاع و تضـوّر جوعـاً حـتّى وجـد ذاتـه داخـل حاويـةِ قمامـة كبـيرة يفـتّش فيهـا عمّـا يشـبه

الطعـام. أخـذ مـن الفضـلات مـا سـدّ بـه جوعتـه ثـم انصرـف بـبعض الكبريـاء المتـبقي، و هـو يلتفـت يمينـاً و يسـاراً خشـيةَ أن تضــبط تلبُّسَــه بالحاويــةِ زهــرةُ عوســج أو ريحانــةٌ، أو شــجرةُ أرز أو صــنوبرةٌ، أو دفــلى أو صفصــافة... ضــحكَ مــن هـذا التمثـل العـائم في الخيـال بعـد أن قـال لـه وعيـه الصـغير بـأن هـذه الكائنـات لا تـدخل فضـاء المدينـة...و مـع ذلـك لـم يجد تفسيرا لحضورها أو لحضور أطيافها.

يســيرُ دون هــدف و دون وجهــة. يســير فقــط، و يســير، و يمعــن في المســير، نكايــةً في قــرار الــنزول، و انتقامــاً مـن ذاتـه الـتي لـم تقـرأ القـرار قـراءة جيّـدة، و لـم تحسـب لهـذا التيـه حسـابا، و لـم تستحضرـ هـذا الإخفـاق استحضـارا. قـرّر أن يــبكي فــأحجم عــن ذلــك لأن الجبــل لا يــبكي... قــرّر أن يصرــخ فارتــدّ إليــه صــوته حســيرا... قــرر أن يــركض في غــير اتجـاه فوجـد ركبتيـه أشـبه بمطـاط عجلـةٍ مثقوبـة... ثـم قـرّر مكرهـاً أن ينـام. و قـد نـام في أول زقـاق معـتم و عـلى (كرتونـة) تآكلــت جنباتهــا. انــدسّ داخلهــا فيمــا هي قــد اســتوعبتْ جســـده الصــغير إلا بعـــض قدميـــه خرجتـــا عـــن الإطـــار. فانطوى على ذاته منكمشاً مثل قنفذ لا شوك على ظهره.

و نـام. نـام جـدّاً. و نـامَ غزيـراً كأنـه ينـتقم لذاتـه الـتي لم تشبع نوماً منذ أسبوع. نام و لم يحلم بشيء البتّة...

في الصــباح، و الشــمس تجلّــتْ عروســاً في ثوبهــا الشــفاف بمحيّاهــا المشرــق دون مســاحيق، ســمع صــوتا وردياً و رؤوما ينادي:

اصـحَ يـا ولـدي فـالظهيرةُ عـلى وشـك الـدخول. فـتح عينيــهِ عــلى وجــهٍ صــبوحٍ لامــرأةٍ ســتينية، تمــدّ إليــه صـينية فطـور و تربـت عـلى كتفيـه ألا يحـزن أو يفـزع. و قبـل أن يتســاءل عــن المكـان و الزمـان و الإنســان قالـت الســيدة الستينية:

أفطرْ أولاً و سأحكي لك تفاصيل وجودك هنا.

تنــاول كسرــة خــبز مغموســة في بعــض الزبــدة و المــربّى دون أن تغــادر نظراتــه وجههــا الصــبوح، و خــاطره عـامرة بالشـكّ أو بالدهشـة، لا يـدري منهمـا شـيئاً، سـوى أنـه مصـدومٌ في عجـب ... فقـد اخـتلط عليـه الجـوع و التعـب و الحيرة حتى نسيَ أي وجدانٍ يُشغّل.

الغرفة واسعة و فراش السرير راقٍ بألوان نسائية لامرأة تعيش وحدها. و البيت تغمره موسيقى خافتة لطربٍ أندلسيّ- يبعث على الارتياح و على الإحساس بأجواءِ عيد الفطر.

و تأتي من هناك غير بعيد رائحة المطبخ، تغزو خياشيمه نكهة مرقٍ معطّر براس الحانوت إعداداً لوجبة الغذاء. ارتاحت نفسه بعض الشيء، و البعض الآخر سكن في الحذر في إمكان المكر الممكن.

حكتْ له كيف أنها كانت في طريقها للتبضع الصباحي فوجدته مرميا داخل كرتونة. فطلبت أحد العاملين في مجال النظافة أن يحمله إلى بيتها. فكان الذي كان.

قالتْ في يقين المؤمنات و في شكّ اليائسات:

اسمع يا ولدي، أنا أعيش وحيدة و لا أدري متى يزورني الموت مادمت مريضة مرضاً مزمناً قد يودي بحياتي في أي لحظة دون استئذان. فهل ترغب في العيش

مـعي، أكرمـك و أعلّمـك و أعتـني بـك كأنـك ولـدي و فلـذة كبدي...

كـان يهجـم عـلى مكونـات الصـينية كأنـه لـن يأكـل بعـد هـذا الصـباح، أو كأنـه يعـبئُ في معدتـه احتياطيـاً يكفيـه مسـغبة يـوم كامـل. ثـم اسـتفاق و لعابـه يسـيل عـلى الكرتونـة. مطّـط جسـده ثـم انصرف مـن الزقـاق الـذي ضـجّ بالمـارة بعـد أن أركــن الكرتونــة في زاويــة ظــنّ أنهــا مخــزن جيــدٌ لفراشــه الغريب.

تســكّع النهــارَ كلــه في محطــة المســافرين المــدعوة بــ(اولاد زيــان) و هنــاك حــاول أن يعــود إلى قمّتــه الــتي احتضــنته و ربّتــه و علّمتــه. لكنــه لــم يفلــح. و في المحطّــة تعلّــم أول درس لــه في الــدفاع عــن نفســه و انتشــال لقمــة يومــه مــن قبضــة الزمــان في شراســة غــير مشــهودة لــه. و في المســاء عــاد إلى زقاقــه و وجــد كرتونتــه في أمــان، انســحب داخلها ثم غطّ في نومة كثيفة.

و في الصــــباح، وجــــد ذاتــــه في بيــــت مــــن دور الصّـفيح، تنبعـث مـن جنباتـه رائحـة كريهـة لمرحـاض خـارجي

مشـترك، تؤمّـه مـؤخّرات السـاكنة دون انقطـاع. و في الـداخل رجـل أربعيـني، قـوي الجثمـانِ و أعـور، يتوسـط وجهَـه أنـفٌ غلـيظ تقـف عـلى أرنبتـه خالـة كبـيرة أسـاءتْ للوجـه أكـثر ممـا زيّنتـه. يحمـل عصـاً مـن كـاليبتوس منجـورة بمهـارة و مـن كـثرة اسـتعمالها فقـدت لونهـا الأصـلي لتلـبس لـون الـتراب. علـم بعـد حـين أنهـا عكـازة لعرَجِـهِ المصـطنع، يتظـاهر بـه أمـام المـارّة اسـتِدْراراً لعطفهـم ثـم لجيـوبهم. و عـلى حصـير مهـترئٍ تجلـس ثـلاثُ نسـاءٍ و طفلتـان. علـم بحدسـه أنهـا عصـابة متسوّلين يحترفون التسوّل. قال الرجل الأعور:

وجـدناك مشرّـداً و آوينـاك و نحـن مسـتعدّون أن نـوفر لـك السـكن تنـام فيـه في أمـان عـوض نومـة الشـارع، شريطـة أن تشـتغل متسـولاً لصـالحنا، و سنخصـص لـك ربـع الأربـاح الـتي تجلبهـا مهاراتـك في التسـول و الشّـحْت. و إن فكـرت في الهـروب فـاعلم أن لي عيونـاً بعـدد الحصىـ في هـذه المدينـة الواسـعة، و سـيأتون بـك إليّ صـاغراً، و سـأعذبك بهذه العصا تعذيبا... فما قولك؟

استفاق على هذا التهديد مذعوراً مبلّلاً بالعرق. حمد الله وقام يقصد محطّة اولاد زيان بعد أن أركن كرتونته في زاوية من زقاقهِ محلِّ إقامته.

تعلّم في المحطّة أن يجلب بعض الدريهمات من شغله الجديد، حمّالٌ صغير لأمتعة المسافرين. و هو يعلم كم عانى من أجل هذه الوظيفة التي يحتكرها جماعة من المتسلّطين و المحتكرين لقطاع غير نظاميّ يسمّونهُ (طالب امعاشو). حاصروه و منعوه و ضربوه و طردوه. و لما تبيّنوا صلابته و حرصه و استماتته تركوه و شأنه. ثمّ لقبوه بـ(الجبلي العاصي)...

و في الصباح، وجد نفسه بين كمّاشة أربعة رجال أقوياء أشدّاء في فضاء مرأب واسع يبدو أنه مرأب مهجور في ضواحي المدينة. مكتوف الأيدي كان، و بحبل متين خلف ظهره. أجلسوه على دكّةٍ باردة من إسمنت مسلّح و قالوا له:

أنت محظوظ أننا لم نذبحك و نطعمك للكلاب. و سنكرمك إكراماً إن أبديتَ تعاوناً معنا و

اســتجبت لمطلبنــا. أعطنــا رقــم هــاتف أبيــك أو وليّ أمــرك كي نفاوضه في شأن المبلغ الذي يشتريك به منّا.

لــم يصــدّق نفســه. و علــم أنــه مــورّط ورطــة لــم يأتِ بها زمانه و لم يجد بها دهره. فكّر و قدّر ثم قرّر... قرّر أن يفــر في أول فرصــة تُتــاح لــه. ابــدى اســتعداده للتعــاون كي يكســب بعــض ودّ هــؤلاء الــذين لا ودّ لهــم. و مــن حســن القــدر أن فكّــوا قيــده لمــا انطلــت علــيهم حيلتــه. ثــم إنهــم انشغلوا عنه بالاتصال بالرقم الذي زوّدهم به...

و لمّــا التفتــوا إليــه وجــدوه قــد تبخّــر و ذاب في الأثير و كأنه لم يكن...

اســتفاق مرعوبــا يتصــفّد عرقــاً و حمــد الله عــلى نجاتــه، و قــرّر ألا يثــق في أحــد و ألا يتنــاول الطعــام مــن يــد أحد و أن لا يأمن لأحد.

خــرج مــن زقاقــه أو مســكنه في اتجــاه محطــة اولاد زيــان ... كســب بعــض الــرزق الــذي لــم يكــن يكفيــه للمغــادرة إلى قمــة الجبــل. ثــم قــرّر أن يكســب المزيــد في

غضــون يــومين إضــافيين أو ثلاثــة و حــتى يضرــب عصــافير عِدّة بحجر واحد، و منها ابتياع بعض الهدايا لذويه...

...

و في الصــباح، وجــدوا جثّتــه بــاردةً لا حركــة فيهــا و لا نفــس. اســتعدوا الشرــطة. أجــروا ترتيبــاهم الإداريــة ثــمّ حملــوا جثمانه... لم ينتبهوا للكرتونة المهترئة...

الورطة الحادية عشرة

ضُمور

رأيْـتُ فِي الْمنـامِ امْـرأةً جمِيلَـة بـأضْراس مُسَوّسَـة، تفـتَرُّ عـن ابْتِسـاماتٍ أمْكَـرَ مـنْ رغـوة. تتحـرّشُ بِـروحِي. تتـدثّرُ فِي جلِبـابٍ رمـادِيّ و تُحْصِي ـ مـا تـبَقّى في جُعبَـتِي مـن دقـائِقَ قبْـلَ أنْ يـتمّ الْقَـبْضُ عـلى ذاكِـرَتِي مُتلبِّسَـةً بـالنّور. حشَـدَتْ ضِـدّي جحافِـلَ مـنْ علامـاتِ الصّـخبِ، بـألوان متناسـقةٍ في تنـاغمٍ مـاكر، نكايـةً في الشّـعرِ الّـذي كنـتُ أحملـهُ في داخـلي. و كانت ترْقُصُ شماتَةً و تُغنِّي احتِفالاً باخْتِفائِي.

كـانَ الْغـبْنُ سـيّدَ الْموْقِـفِ، و أنـا لا أجـدُ في أحْبـابِي الّــذين كــانوا يتفرّجــون في ذُهــولٍ نصــيراً واحــدا، اللّهــم إلا مطمطـةَ فـمٍ مـن امـرأةٍ واحِـدة أمـلى عـليّ حلـمي أنهـا قريبـةٌ مـن دمي، احْتجّــتِ الْمســكينةُ في صــمتٍ خشــية أن يطالهــا مــا طـالَنِي أو اسـتجابَةً لإغـراءٍ دفـين يسـكن رغبتهـا الغامضـة. و لكنّها توارتْ عن المشهدِ في لمحةِ بصر ثم اختفت كلّياً.

لـم يـدُرْ بِخلْـدي إلا شيءٌ واحـد، كـان مـعي، أحملـه في قلـبِي و أنتشي ـ بحضـوره الخـرافي. كانــتْ صــورَةً عمْلاقــةً لامــرأةٍ غــيّرتْ وجهــةَ قــوّتي و أطْعمتْــنِي منــذ اللقــاءِ الْأخضرِـ حبّةً سحريةً تكون لِي سنداً على أقواسِ الزمان...

حمــدتُ اللّه عــلى هــذه المعيــةِ، و أنــا في ســياقِ التعـذِيب، تمارسُـه عـليّ أيـادٍ خفيّـة تـتقنُ فـنّ الهـزءِ و الجلْـد... ربتَـتْ المـرأة عـلى ذهـولِي بنظـرةٍ بعيـدة يكادُ القصُـورُ و العجْـزُ يقضْـمانِها قضـما. ألْقَمِـني ضُـمورُها في السـاحةِ رويـداً رويـدا إحساسـا غريبـاً بـالتّخلّي. و فجـأة اختفـتِ الصـورة في سـديم الضــباب حــتى تلاشــتْ أو كــادتْ... لــم أكــترث لســلطان الســوطِ عـلى ظهْـري في حـين آلَمـني جـدّاً ضـمورُ الصـورة... آلمني جدّا ضمور الصورة...

الورطة الثانية عشرة

ماسح الأحذية

اخــترت مقعــدا و حشرــت نفسيــ بــين الاجســاد. التهمتـني الأعمـدة ورمـت بي بـين وطـن و آخـر. و ألقـتْ بعيـني و ذهـني في خارطـة شاسـعة مـن الخـراب و الـدمار، حـتى ليكـاد المــرء أو القــارئ يحتلــه إحســاس بــأن العــالم كلــه بــؤرة مــن الهـدم المقصـود... لعنـة الجريـدة أنهـا تعطيـك كـل شيء و لا شيء.

دلــف الى الــداخل موســوما بــالقهر، يرســله بــين الأجســاد ليقتــنص زبونــا. و كنــت انــا. اختــارتني عينــاه أو قــدره لســت أدري . هــل ترغــب في تلميــع حــذائك؟ (تْســيري ؟) قالهــا بشــكل آلي قــد يكــون كررهــا عــبر تجوالــه مئــات المرات...

تركـتُ جريـدتي و أعطيتـه كـل اهتمـامي خشـية أن أمــسّ كرامتــه. كنــت قبلهــا أرفــض ان يمســح حــذائي أحــد غــيري، لا أدري لــمَ عطلــت قنــاعتي و تعاطفــت مــع الرجــل. قبلت العرض فتقدم نحوي بشيء من المرح :

- مدّ رجليك من فضلك.

خلعــت حــذائي و ســلمته إيــاه بعــد أن وضــعت قــدمايَ المجــوربتين عــلى الــبلاط البــارد. أخــذ زوج الحــذاء و وضعه جانبا ثم خاطبني بالتماعةٍ نادرة تشعّ من عينيه :

- لماذا خلعت حذاءك؟

- لأني أحترمك و لا أريد إهانتك

- أنت الآن تهينني عين الإهانة

- ظننت أني فعلت خيرا

- لا بل "جيتي تْكحل ليها عْورتيها" .

- كيف؟

- البس حذاءك حتى لا تزكم انفي.

الورطة الثالثة عشرة

حبلٌ و عمامة

كـان غارقـاً في حصـاد حبـات (الـبي) و هي لعبـةُ الأقـراص الزجاجيـة الصـغيرة في حجـم الظفـر. تكشـف عـن مهـارات التسـديد و الإصـابة لـدى الأطفـال. كـان صـاحبنا ماهراً على أقرانه في لعبة تصوغها براءة الأطفال .

و هــو في غمــرة الانتصــار توقــف كيانــه كلّــه عــن الفـرح، اصـفرّ وجهـه و نشـف ريقـه و ارتعـدت فرائصـه. لقـد رأى أبـاه الصـارم قادمـاً وفي عينيـه شرر تسـتطير منـه العقوبـة و يستشيط منه العقاب في قسوتهما البائنة.

لـم يجـد الطفـل بـدّاً مـن إطـلاق سـاقيه للـريح. فـرّ هاربـا في غـير اتجـاه. أمـا الأب فقصـد أقـرب دكـان في الحومـة، ابتـاع منـه حـبلاً متينـاً مـن حبـال أكيـاس السـكّر الكبـيرة. ثـم راح في إثـر ولـده في يقـين الأب الـذي يعـرف كيـف يربّي أولاده ، و حتى في غيابه.

ولمـا ألـقى القـبض عـلى الضـنين صـفعه صـفعة مدويـة حـتى انرسـمت الكـف عـلى الخـد الفـتي. ثـم عقـد الأب الحبـل في آخـره عـلى شـكل مشـنقة، ووضـعه عـلى عنـق الصـبي ليجـره كمـا تجـر الدابـة عـلى مـرأى مـن الأطفـال الـذين

تحلقــوا حــول المشــهد يصرــخون بــين شــامت ومشــفق وخائف وحانق و...

كـان الشـيخ جالسـا أمـام البيـت يرنـو إلى الحـدث رنـو حكـيم خـبر الزمـان. تقـدم نحـو الأب الهصـور، خلـع عمامتـه البيضـاء مـن عـلى رأسـه، أرسـلها في غضـب هـادئ، عقـدها ، وضـعها على عنق الأب ، ثم جره كما جر ولده كما تجر الدابة...

أدرك الأب المنــدفع الرســالة. وبسرــعة حكيمــة حــرر ولـده و أرسـله. انفلـت الولـد مـن المشـهد كمـا ينفلـت عصفور من الأسر في فرحة بريئة عارمة ...

الورطة الثالثة عشرة

ليس الذكر كالأنثى

سـبقته إلى الوجـود بعـامين، ولمـا هـلّ عـلى الـدنيا عمــرت الفرحــة البيــت حــتى لا مســاحة مــن حــزن و حــتى كـادتِ الجـدران تنطـق بـذلك. قـال الأب سـنعلمه أحسـن تعلـيم. قالـت الأم سنصـنع منـه رجـل المسـتقبل. قـال الجـد سـنعيد نسـخة عمـه الـذي مـات قبـل أن يـتم مشـروعه الطبي. قالت الجدة سندخله إلى التاريخ من أوسع أبوابه.

قال هاتفٌ " وليس الذكر كالأنثى"

لـم يلتفـت أحـد إلى تلـك الـتي كانـت تلعـب دور الأم مـع دميتهـا. انشـغلوا عنهـا بولـدهم قـرة أعيـنهم . ولمـا تـذكروا، قـالوا سـنزوجها أول طـارق. قـالوا قبـل أن تبلـغ الحلـم . قالوا الستر خير للبنت. قالوا ونحبسها عن الدراسة.

قال هاتفٌ " وليس الذكر كالانثى"

انشـغلوا عنهـا كالعـادة حـتى قـال الأب سـأغدق عليـه مـالاً. قالـت الأم سـأغدق عليـه حنانـاً. قالـت الجـدة خمسة وخميس عليه. قال الجد صورتي تتكرر.

قال هاتفٌ " وليس الذكر كالانثى"

لـم يلتفـت أحـد إلى تلـك الـتي لا تفـارق كتابهـا. انشـغلوا عنهـا بحبيـبهم فـارس بيـتهم. ولمـا تـذكروا قـالوا دعوهـا مـع رومنسـيتها. قـالوا لاضـير إن عانقـت الكتـاب. قـالوا عـلى الأقـل هي قابعـة في البيـت. قـالوا هي تكفينـا شر الأنثى بصمتها.

قال هاتفٌ "وليس الذكر كالانثى"

ثـم انشـغلوا عنهـا إلى وليـدهم. قـال الأب ضـبطته مـع رفقـة سـوء. قالـت الأم وجـدت في جيبـه مـا يشـبه النبـات. قالـت الجـدة هي عـين أصـابته. قـال الجـد اسألوا بنت الجيران.

اشـترى الأب لابنـه عربـة. سـلمه رأس المـال. زوجـه مـن بنـت الجـيران. ثـم انشـغلوا بـه شـغلا أنسـاهم تلـك الـتي حولـت كتابهـا إلى شـهادة عليـا في صـمت الأنـثى عنـدما تريد. عندئذ فقط استوعبوا ما قال الهاتف.

الورطة الرابعة عشرة

شَحْذُ السِّهَامِ فِي كِتَابِ الْأَيَّامِ

- الْأَحَدُ ...

يُضِيــءُ الْأَحَــدُ دَمِي بِــالْجُنُونِ، قَبْــلَ أَنْ يُــوقِظَنِي وَرْداً غَجرِيّــاً فِي سَــدِيمِ الْفَجْــرِ الصَّــامِتِ، مِــنْ أُرْجُوحَــةِ لَذِيــذِ الْوَسَــن. يَلُفُّــنِي فِي عَبَــاءَةِ الْإِسْــتِرْخَاءِ الْإِضَــافِيّ، وَ يُعْلِــنُ فِي وَجْــهِي أَنَّ النَّهَــارَ سَــحابَة ، وَ أَنَّ الْعَــرَقَ مَحْظُــورٌ، وَ أَنَّ الْأَرْقَامَ مُلْغَاة...

شَيْءٌ مِــنْ فَــوْضَى الْأعْضَــاءِ تَعُــومُ فِي تَهَافُــتِ الْوَقْــتِ وَالْوَقْــتُ يُهَــرْوِلُ فِي اتِّجَــاهِ الْمُتْعَــةِ المغلّقــة بالسَّرَــابِ. وَ فِي عُجَالَــةِ الْعَاشِــقِ الْيَــائِسِ، تَــرَاهُ يُقَلِّــصُ مِــنْ نِسْــبةِ الضّــوْءِ كَأنّــهُ عَلى مَوْعِدٍ خُرافِيّ مَعَ حَبِيبةٍ مَجْهُولَة.

- الِاثْنَيْن ...

يَــدْعُو الاثْنَــيْنُ دَمِي إِلَى الــدُّخُولِ فِي لَعْنَــةِ الزِّحَــامِ. كُرَيَّــات بَيْضَــاء وَ حَمْــرَاء تَتَنَــازَعْنَ الْمَســافاتِ. و تَــتَعَلّمْنَ الْمُــرُورَ الْمَمْنُــوعَ، مِــنْ تَعَــثُّرِ الِانْسِــيَاب إِلَى تَهَــجِّي كــلِّ أشــكالِ التَّــوَتّرِ. تَتَفَقَّــدْنَ الْخَطْــوَ، الْتَهَمَــهُ الْأَمْــسُ و الضّــبابُ. نَسِيَـ شَــكْلَهُ أَوْ كَــاد. تَــأْتِي الــرُّوحُ، حَكِيمَــةً، تُهَدْهِــدُ جُثَّــةَ الْكَــلامِ تسْــتَجْدِيهَا

قِطَـافَ بَكـارَاتِ الْيَقَظَـةِ والْيَقَظَـةُ عَنْقَـاءُ، مَـا زَالَـتْ لَـمْ تُـدْرِكْ رَمَـادَ النَّهَـار. والنَّهَـارُ كَـائِنٌ كَسُـولٌ يَتَثَـاءَبُ فِي فَنَـاجِينَ صَـامِتَة، لَا قَاعَ لَها وَ لَا بُنّ.

- الثُّلَاثَاءُ...

يَـدْلِفُ الثُّلَاثَـاءُ إِلَى دَمِي ، مِثْـلَ نَشَّـالٍ ظَرِيـفٍ مَـاهِرٍ. يَسْرِـقُ مِـنِّي آخِـرَ حَبَّـةِ رَمَـادٍ، و يُعِيـدُ لِلطَّـائِرِ آخِـرَ رِيشَـةٍ كَيْ يَسْـتَقِيمَ الْإِشْـتِعَالُ فِي الْأَجْنِحَـةِ. تَأْخُـذُ الْأَوْرِدَةُ شَـكْلَ الْـوَرْدَة. تَأْكُـلُ أَكْمَامَهـا فِي الْتِهَـامٍ مَـازُوشِيّ، يَسْـتَبِقُ الْخَطْـوَ فِي غَـيرِ الْتِفَاتٍ، وَ لَا رُجُوع .

الثُّلاثَـاءُ كَائِنُ خَبِـيرٌ بِـتَلاوِينِ مَـا تَـبَقّى فِي نَسْـغِ الـوَرْدَةِ مِـنْ رُوح، يَرْسُـمُ لَهـا خُطُـوطَ الطُّـولِ، وَ يَنْسَى ـ مَلامِـحَ الْعَـرْضِ. يُطَـرّزُ عَـلَى رَأسِـهَا تَسْرِـيحَةً عَصْرِـيّةً لِشَـعَرٍ أشْـعَثَ، قَبْـلَ أنْ تُعانِقَ حَبِيبَ اللّقاء.

- الْأَرْبِعَاءُ...

يَتَرَبَّـــعُ الْأَرْبِعَـــاءُ عَـــلَى دَمِي، فَـــتىً مَرْبُـــوعَ الْقَـــدِّ يَرْشَـــحُ جَبِينُـــهُ دَبِيبـــاً لتَعَـــبٍ لَذِيـــذٍ. يَقْسِـــمُ سُـــلَّةَ الْإِمْتِـــدَادِ شَـــطْرَيْنِ: شَـــطْرٌ لِلْأَعْشَـــابِ النَّاشِـــفَةِ، فِي قَـــرارِ الِانْسِـــحَابِ مِـــنْ فَـــوْضَى الْخَلَايَـــا. وَ شَـــطْرٌ ثَـــانٍ يَسْـــتَقْبِلُ احْتِمَـــالَاتِ الْأَشْـــجَارِ، تَحْبُـــلُ بِـــالْمَعْنَى، ثَمْـــراً أَلَـــذّ، ثَمْـــراً أَشَـــدّ ، وَ ثَمْـــراً بَعِيـــداً عَـــنْ كَمَـــائِنِ الْقِطَـــافِ، زِئْـــبَقِيَّ الْمَلْمَـــسِ، يَنْفَلِـــتُ مِـــنْ قَبْضَـــةِ الطَّعْـــمِ ، وَ يَشْكُو الِالْتِذَاذ.

هَـــا نَكْهَـــةِ الِانْتِظَـــارِ تَتَرَقّـــبُ سَـــجِينَها الْـــبَرئ فِي خَـــرَائِطِ الْعَـــمَى كَبُسْـــتَانٍ مُشَـــمَّعِ الْقُفْـــلِ، عَـــلى أزْهَـــار غَاضِـــبَة تَسْتَعْصِي عَلى التَّرْوِيضِ .

- الْخَمِيسُ...

لِـــدَمِي لَـــوْنٌ صَـــاخِبٌ، كَمَـــا الْخَمِـــيسُ رَاكِـــضُ الْإِيقَـــاعِ فِي امْـــتِلَاءِ الشِّـــفَاهِ بِموسِـــيقَى الـــرّوكْ، يُغْـــرِينِي هَـــذا الْوَجْـــهُ، وَ أكْسِرُ لَعْنَـــةَ الشَّـــبَهِ وَ التِّكْـــرَارِ. يُـــدْخِلُنِي فِي سِـــبَاقٍ غَرِيـــبٍ، أُنَـــافِسُ ظِـــلِّي عَـــلى اعْـــتِلَاءِ رَأْسِ اللَّحَظَـــاتِ الْهَارِبَـــةِ، تَتْوِيجـــاً رَاقِصـــاً، يُمْسِـــكُ

بِثَـدْيِ الْغَزَالَـةِ الْبَرِّيَـةِ. يَهْصِرُـ دَرَّهـا الْمُكْـتَظَّ بِيَـدَيْنِ عَـامِرَتَيْنِ بِالرَّغْبَـةِ تُوَزِّعَـانِ الْغَمْـرَ عَـلى كُـلِّ مَـنْ مَـرَّ عَـلى بَطْـنِ رَاحَـتَي، وَ انْتَشَى فِي خُطُوطِهَا بِرَقْصَةِ الْعَطاء.

- الْجُمُعَة ...

وَ لَقَـدْ زَارَتْـنِي فِي عَباءَتِهـا الْبيْضَـاء، تَفْحَـصُ دَمِي، قَالَـتْ: يَشْـهَدُ مِهْرَجَـانُ الضَّـخِّ الْيَـوْمَ أَصْـغَرَ، بَـلْ أَسْرَعَ دَوْرَةٍ فِي تَـارِيخِ الـرَّكْضِ نَحْـوَ النِّهَايَـاتِ و الْبِـدَايَاتِ ... لَـيْسَ لَـكَ إِلّا شُرُودُ الْخَطْوِ، فَلا يَلْتَفِتْ مِنْ مِيَاهِكَ مَاءٌ .

اِمْـضِ إِلَى نَشِـيدِ النَّبْـعِ، لَمْلِـمْ مَـا تَـبَقَّى مِـنْ أَطْيَـافِ الْوَقْتِ الْعَابِرِ.فَالْوِسَاداتُ مَنَاشِفُ سَعِيدَةٌ بِالْغِيَاب.

- السَّبْتُ...

دَمِي سَـاخِنٌ، دَرَجَـاتٍ فَـوْقَ احْتِمَـالِ الْعَرْبَـدَة. رَقِيـقُ الْمَلْمَـسِ هَـذا الْيَـوْمُ، عِرْبِيـدٌ ... جَـرِئٌ عَـلى تَنُّـورَاتِ الْمَليحـاتِ ومُشَـاكِسٌ، مُتَحَـوِّلٌ و خُنْـثَى غَجَرِيَّـة تَلْـبَسُ فَـوْضَى النَّهْـر،

تَتَكَحَّـلُ بِسَـوَادَ الْمَغِيـبِ. قِوَامُهَـا قِيثَـارَةٌ تَعْـزِفُ لَحْـنَ التِّكْـرَارِ الْأَهْـوَجِ، تُمْسِـكُ فِي يُمْنَاهَـا قَـرَارَ الْهُـرُوبِ إِلَى الْأَلْـوَانِ، وَ فِي يُسْرَـاهَا فَنَـاجِينَ مَشْـقُوقَةً. تَقْـرَأُ فِي قِيعَانِهَـا قَـدَرَ الْأَحَـدِ وَ الْإِثْنَيْنِ وبَاقِي الرَّنِينِ .

الورطة الخامسة عشرة

لَوْحَةٌ زَيْتِيّةٌ

لَوْحَــةٌ زَيْتِيّــةٌ فِي آخِــرِ الــرِّوَاقِ، سَــجَّانٌ يَشْرَـبُ مِــنْ أَصَــابِعِهِ انْكِسَــارَ الضَّــوْءِ فِي رَحِــمِ الْجِــدَا، وَ سَــجِينٌ يَمْــتَصُّ مَــا تَــبَقَّى مِــنَ الضَّــوْءِ فِي خَيَاشِــيمِهِ الْوَاسِــعَة، مُتَطَلِّعــاً إِلَى سَــقْفِ الزِّنْزَانَةِ تَفِرُّ مِنْهُ عَصَافِيرُ ثَلاثَةٌ فِي اتِّجَاهِ الدّخَان .

كُــوبٌ مِــنْ مَعْــدِنٍ عَــلَاهُ بَعْــضُ الصَّــدَأ، وَ مُلْصَــقٌ كَبِيرٌ بَاهِتٌ لِمارْلِينْ مُونْرو، تَشْرَبُ الْوَقْتَ بِدُونِ نَخْب.

وَ مَــا تَــبَقَّى مِــنْ الْمَشْــهَدِ ظِــلَالٌ عَمْيَــاءُ، وَ أَشْــيَاء نَافِرَة نَسِيَهَا سَالْفَادُور دَالِي، فِي جَيُوبِ الزَّائِرِينَ.

***

محتويات الإضمامة

المحتوى	الصفحة
العتبة	5
اعتقال	7
زنبقة سوداء	15
رصاصٌ و سكّر	27
كم الساعة؟	41
طقوس الدفن	48
سؤال العقرب	54
ثور عائشة	60

تحليق الروح 65

ورطةُ الجهاتِ النّائمة 69

جبلٌ أطلس 81

ضمور 91

ماسح الأحذية 94

حبلٌ و عمامة 97

ليس الذكر كالأنثى 100

شحذُ السهام في كتاب الأيّام 103

لوحة زيتية 109

***

- نورالدين حنيف أبوشامة
- من مواليد مدينة الدارالبيضاء\ المغرب
- عضو في الجمعية الوطنية لصقارة القواسم
- خبير وطني في رياضة الأيكيدو
- مهتمّ بمجال الإبداع و الفنّ التشكيلي
- باحث في التربية و الفكر و الأدب

rawpixel